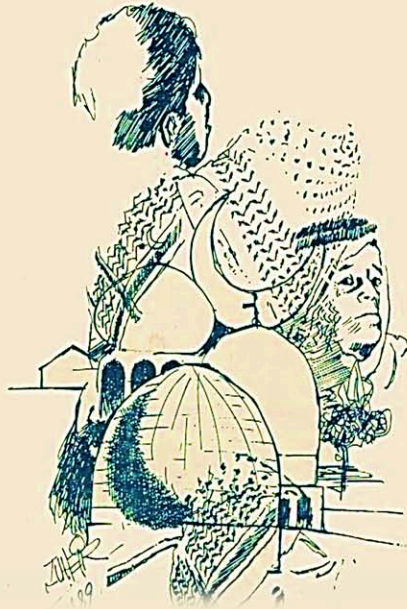


نيكوس كازانتزاس

رحلة إلى فلسطين

أخطر وثيقة ضد الصهيونية يكتبها روائي ومفكر عالمي في أوائل هذا القرن

ترجمة: منية سمارة
محمد الظاهر



نيكوس كازانتزاس
رحلة إلى فلسطين

رقم الايداع لدى دائرة المكتبات والوثائق الوطنية (١٩٨٩ / ٩ / ٥٨٩) .

ع ٩١٥
كاز

كازانتزاكيس، نيكوس .

رحلة إلى فلسطين / نيكوس كازانتزاكيس، ترجمة منية
سمارة، محمد الظاهر . - عمان : مؤسسة خلدون، ١٩٨٩ .

(٨٥) ص

ر . أ (١٩٨٩ / ٩ / ٥٨٩)

١ - فلسطين - وصف ورحلات أ - منية سمارة، مترجم
ب - محمد الظاهر، مترجم ج - العنوان .

(تمت الفهرسة بمعرفة دائرة المكتبات والوثائق الوطنية)

١٩٨٩ - ١٤١٠ هـ

الناشر : مؤسسة خلدون للدراسات والنشر

هاتف ٦٨٩٨٦٢ - ٦٨٩٨٦٣

تصدير

بين عامي ١٩٢٦ و١٩٢٧، أوفدت صحيفة «اليغيثروس لوغوس» اليونانية، الروائي اليوناني الكبير نيكوس كازانتزاكيس، المرشح لجائزة نوبل عام ١٩٥٦، إلى فلسطين، لتغطية احتفالات عيد الفصح عام ١٩٢٦. وقد نشرت مشاهداته هذه في الصحف اليونانية في نفس العام.

وفي عام ١٩٢٧، نشرت الطبعة الأولى من كتابه «ترحال»، التي تشمل على مشاهداته في كل من فلسطين ومصر، وإيطاليا، وقبرص، ولكن نظراً لخطورة المقالات التي كتبها نيكوس كازانتزاكيس عن «فلسطين»، في منتصف العقد الثاني من هذا القرن، فقد وجدنا أن من المناسب أن يكون هذا الكتاب مشتملاً على هذه الوثيقة التاريخية التي كتبها أهم روائي ومفكر في هذا القرن، والتي أذان فيها الصهيونية قبل أن يتنبه العالم الى الخطر الصهيوني، والى الكوارث التي ستقع على العالم أجمع نتيجة لهذه الحركة التي سيكون وقودها اليهود قبل غيرهم.

لقد كانت هذه المقالات والملاحظات، نبوءة، وإشارة تحذير للخطر لقادم، قبل أن تكون مجرد مشاهدات قام بها كاتب كبير لفلسطين. ففي هذه المقالات، يحاول نيكوس كازانتزاكيس أن يطرح نبوءته للقرن العشرين، هذه النبوءة التي جاءت الوقائع لتؤكد صدقها، وتؤكد الفكر النير الطليعي لهذا الكاتب.

ولكن كازانتزاكيس لم يكن راضياً عن طبعة الاسكندرية، لأنها كانت - على حد تعبير السيدة هيلين كازانتزاكيس - بعيدة عن أجواء كازانتزاكيس بشكل كبير، فقد نشرت بلغة «الكاثاريغوسا»، وهي اللغة اليونانية الصافية، والتي كانت في نفس الوقت اللغة الصحيفة الرسمية.

وعندما جمعت الاعمال الكاملة لـ «كازانتزاكيس»، واعدت للنشر، أعاد كتابة «ترحال» من جديد مستبدلاً الكلمات «الكاثاريغوسية» المقعرة بكلمات يونانية بسيطة، واسعة الانتشار، وقام بمراجعات اضافية جديدة، وأضاف فصلاً عن «موريا»، أما الطبعة الجديدة المنقحة، فقد نشرت في اليونان عام ١٩٦١، بعد وفاة الكاتب، لذلك فإن المقالات التي تشتمل عليها، هذه الترجمة عن فلسطين مأخوذة، من آخر طبعة منقحة للكتاب.

ونحن ندرك أن هذا الكتاب سيحظى باهتمام خاص، من قبل القارئ المعاصر، ذلك أنه يكشف عن الحدس النبؤي في نظرة كازانتزاكيس لهذه البلاد، لانه في فترة مبكرة، أي منذ عام ١٩٢٧، استطاع أن يستشف أن مصير وقدّر الغرب ينتقل الى الشرق، اضافة الى اشارته الى بروز مصر كقوة بارزة في العالم.

لقد كتبت هذه المقالات بصورة أولية، أصلية، مباشرة، وجديدة، وبالرغم من الظرف الزمني الدقيق والحرص، الذي لم يؤكد على وجود بنية فنية مقصودة، إلا أن هذه المقالات البسيطة والمباشرة، اشتملت على أفكار ذات نظرة ثابتة وعميقة للتاريخ. لقد كشفت لنا عن مصر في منتصف العشرينات، وهي تشهد نمو بذور الثورة، في هذا الشعب الذي عرف على الدوام بأنه سلس القياد، وشديد الخضوع لاسياده، فمن خلال وصفه للفلاح العربي وهو يجر المياه من البئر بنفس القادوس البدائي الذي كان يستخدمه أجداده الأول، يرينا كازانتزاكيس العربي، كإنسان لا ينفصل أبداً عن ماضيه. وهذا هو ما يحدث أيضاً حين يزور إحدى المزارع التعاونية الصهيونية الحديثة، حيث يصف لنا الأجيال اليهودية المعاصرة، والقوية التي ترتبط ارتباطاً مصيرياً لا مناص منه، بالقدر التراجيدي اليهودي.

إن وصفه الواقعي المباشر، يعتبر عملاً فريداً ونادراً، خارج سياق الحتمية التاريخية، لقد نظر إلى هؤلاء الناس، وإلى هذه البلاد، نظرة شاملة، تعتمد على دمج الماضي والحاضر، من أجل تصوير شكل مستقبلهم، ومن أجل تحديد صورة العصر القادم، عصر الثورة.

هذه النظرة الشاملة، تسير جنباً إلى جنب، مع الوصف السهل الممتنع الساحر، لهذا العالم الملموس، وللواقعية المعاصرة، التي تكمن تحت سطحه، والتي تكشف عن نهوض الشعوب الشرقية:

«بيطء، ولكن بشكل أكيد، أخذت الوحدة الهائلة المربعة بين

المسلمين تشكل . . من مراكش حتى الصين، ومن تركستان حتى الكونغو . . فالشعوب الشرقية تسير بخطى واسعة الى الامام» . .

وهذه النظرة أيضاً، تسير جنباً الى جنب، مع هذا الوصف الشعري الرائع، لاريحا، والخليل، والسامرة، والجليل، والتجمعات الزراعية الصهيونية الحديثة، ووجودهم المرصود بالخطر العربي، والشتات المحكوم عليه بالهلاك .

لقد رأى كازانتراكيس ان الحلم الصهيوني سينتهي بشكل تراجيدي، وكان ينظر الى الشتات كحتمية تاريخية، شكلت الجنس العبري عكس مشيئته ورغباته، وهكذا شكلته في خميرة الارض، ودفعته الى لعب دوره الخاص في التاريخ، من أجل حماية الجنس البشري، من الجهود الكبيرة المدبرة، لخلق الرضى وراحة البال . إنها حجة بليغة ومثيرة للعاطفة، لاولئك الذين ما يزالون يثيرون بجرأة التساؤلات ويقفون في وجه عملية الخداع الذاتي، لهذا التوازن المدبر، للحالة الراهنة، وقد طرحت هذه الفكرة بدقة أكثر من خلال طروحاته حول مولد الابطال، وقد تطورات هذه الفكرة وتوسعت فيما بعد، في روايته الرائعة المؤثرة: «الامتحان الاخير للمسيح» .

كذلك، فإن هذه المقالات تكتسب فرادتها من خلال الآراء المباشرة الأنية حول الاماكن والناس، والتي تطورت فيما بعد، لتصبح اللبنة الأساسية في العديد من أعماله اللاحقة وبشكل خاص، في عمله القريب من السيرة الذاتية «تقرير الى غريكو» والذي تأثر فيه، في أكثر من

مكان، بوصفه الرائع لسيناء . كذلك فإن الاستلهامات المأخوذة من سيناء، تكررت أكثر من مرة، في أعمال مثل «الامتحان الاخير للمسيح»، و«الوجد اليوناني»، و«الحرية أو الموت» .

لقد أثرت خبرات وتجارب السفر على العديد من أعماله العظيمة، في «الاوديسا المعاصرة»، وفي «موسى» أيا من المعاصرة، الجريء المقدام بوصاياه العشر الجديدة، و«زوربا» على سبيل المثال لا الحصر . كذلك فقد ساعدت على تأطير فلسفته التي كشف عنها بوضوح في «مخلصو الرب»، وفي «آراء»، أحد أعماله المبكرة التي اكتشفت أخيراً .

لقد كانت الرحلات ذات قيمة كبيرة، وأهمية بالغة، لأنها كانت مصدراً للابداعات الخلاقة لكازانتزاكيس، فقد كان الشرق بالنسبة له، يشكل مصدر جذب سحري، فهو كانسان كريت، يشعر بصلة القرابة مع هذا الجزء من العالم، ويرغب أن يؤكد إيمانه، بأن أجداده، يجري في عروقهم الدم البدوي .

وقد أخذت هذه المقالات الصحفية التي تشتمل عليها هذه المجموعة، أكثر من غيرها، نصيب الاسد، من خبرات وتجارب كازانتزاكيس الحياتية .

على أية حال، فإن صدور القسم الخاص بفلسطين من هذا الكتاب الهام، ما هو إلا تأكيد على وثيقة هامة يجب أن تأخذ مكانها من الاهتمام العربي والعالمي، ولكن هذا لا ينفي أن الكتاب بمجمله، والذي سوف

نعمل على إصداره بشكل كامل في المستقبل هو من أهم الكتب التي
يجب على الفاريء العربي أن يقرأها، لأنه كتاب يقرأ الماضي بلغة
المستقبل.

«المترجمان»

* اعتمد هذا التصدير، بشكل كبير، على المقدمة الانجليزية للطبعة الكاملة لكتاب
«ترحال».

الفزارة* رفيقة رحلتي

يناضل الخالق، بروح عنيدة لا مرئية، من أجل أن يحافظ على تفوقه، ومنزلته الرفيعة. لذلك فإن كل نصر عظيم، يتمخض عن إحباط وهزيمة، لان أعماقنا الخفية - الشيء الوحيد الذي يستحق الحديث عنه، ويبقى دائماً دون حديث - لا تستطيع أبداً أن تخضع نفسها للحدود المادية الملموسة للفن. فنحن نشور لأية كلمة. نرى الاشجار في فترة الازهار، والبطل، والمرأة، ونجمة الفجر، ونصرخ «آه» ولا يستطيع القلب أن يتحمل شيئاً أكثر من ذلك. وحين نحاول تحليل هذه الـ «آه»، وتحويلها الى فكر وفن، من أجل خلق التواصل بينها وبين الآخرين، ولحمايتها من تحريفاتنا وتأويلاتنا الخاصة. آه كم تصبح رخيصة، حين تصبح كلمات صفراوية مزيفة، مليئة بالفراغ، والوهم.

ذات ليلة، رأيت هذا الحلم، رأيت نفسي منكباً على كومة من الاوراق، أكتب، وأكتب، وأكتب. . . وكنت ألّهت كأنني أصعد جبلاً، وأجاهد من أجل أن أحفظ وأحفظ، واحارب بالكلمات، وأقاتل من أجل

قهرها، وكنت أشعر بها تتفاخر حولي بصورة هوجاء، وتجمع كالجياذ النافرة.

فجأة، وبينما أنا منكب على الأوراق، أحسست بومضة بارقة، تنفذ الى لب جمجمتي، وقد أصابني الفزع، وأنا أرفع عيني: فقد رأيت قرماً ينتصب أمامي، بلحية سوداء طويلة تلامس الأرض، وكان يهز رأسه الثقيل ببطء، ويحدق بي بازدراء. إرتعبت، وأحنيت رقبتى على الكومة مرة أخرى، وتابعت الكتابة. لكن تلك النظرة بقيت تضرب قمة جمجمتي بلا هوادة، رفعت عيني مرة أخرى وأنا أرتعش، فرأيت القزم ما يزال واقفاً هناك، يهز رأسه، وينظر إلي بحزن وأسى. وفجأة، وللمرة الأولى في حياتي، أشعر بالاشمئزاز يفور في أعماقي، وأشعر بالسخط على هذه الأوراق، والكتب، والحبر، التي فقدتها، في صراعي غير المقدس من أجل أن أغلف روحي، بهذه القوالب الجميلة.

أفقت وأنا أشعر بهذا التقزز والغثيان في أحشائي، وسمعت صوتاً حاداً ينطلق داخلي، وكأن القزم ما يزال واقفاً أمامي ويتحدث:

- «لقد ضاعت حياتك في التجارب والاختبارات، وعند نهاية كل طريق كان الظفر يقف بانتظارك، لكن بما أنك كنت متسرعاً دائماً، فقد كنت تخسر قلبك، وتعود، الناس لا يرون الهنادات* أنهم لا يسمعون الأغاني التي تملأ الجو. فهم عمي صم بكم، يدفعون بمجاديفهم من أجل السيطرة على الأرض. لكن صفوة الربانة هم الذين يصغون الى صوت الهنادات داخلهم، صوت أرواحهم، لذلك فهم يسرفون في تبديد

حيواتهم من أجلهن . ما هي القيمة الأخرى التي تظن أنها بقيت لحياتك؟
البؤساء يسمعون الهنادات ولكنهم لا يصدقون ذلك . فهم متخمون
بالحكمة الزائفة والجبن ، ويزنون الكلمات قبل أن يقولوا «نعم» أو «لا» ،
يزنونها بميزان الذهب الحساس طوال حياتهم . ويموتون ، وحين يموتون ،
يتحير الرب ولا يدري أين يضعهم فهم لن يزينوا جهنم ، ولن يندسوا الجنة
فيأمر بأن يعلقوا رأساً على عقب في الهواء ، بين الفساد والاستقامة .

- «انك عاجز بشكل مزِر وأنا أخجل أن أجرك معي على طول المدى» .

قلت بازدرأ :

- «لقد وصلت الى النهاية ، وعند نهاية كل طريق ، لم أكن أجد سوى هوة
سحيقة» .

- «انت لم تجد سوى عجزك عن التجاوز ، فالهوة السحيقة ، لفظ نطلقه
على أي شيء لا نستطيع تجاوزه ، لا توجد أية هوة ، ولا توجد أية نهاية ،
هناك فقط ، روح الانسان ، وهذه الروح تعني كل شيء حسب شجاعة
الانسان الخاصة ، أوجبه الخاص . فالمسيح ، وبوذا ، ومحمد ، وجدوا
هذه الهوة ، ولكنهم استطاعوا أن يبنوا الجسر الذي عبروا من فوقه ، وعبرت
خلفهم أفواج كبيرة من البشر ، هؤلاء هم القادة ، هؤلاء هم الأبطال» .

- «الانسان لا يصبح بطلاً إلا بواسطة الرب ، أو عن طريق النضال
والكفاح ، وأنا أناضل» .

- «بطل؟ لكن البطولة تعني تدريب النفس من أجل التغلب على

العدوانية، والحفاظ على التفوق، بلا كلل أو ملل . أنت لا تستطيع أن تقهر الفوضى داخلك، وأن تصل الى جوهر الكلمة، وأنت تبررتها فتك بالقول : «الاشكال والصيغ القديمة غير قادرة على احتوائي» ولكنك تستطيع ذلك بالفن الطليعي، وباستطاعتك أيضاً الوصول الى تخوم البطولة، فهناك متسع لعشر أرواح للعمل بسهولة ويسر في مجال البحث عن الحقيقة . وحتى لو كانت هذه الحقيقة ناقصة، وقاصرة، وإنسانية، فانت قادر أيضاً على هزيمة القوى الطبيعية، وإيجاد القوانين التي توسع دائرة حريتنا على هذه الارض، من خلال الرموز الدينية الجامدة والخامدة، وتستطيع أن تجمع الزخم لانجازاتك السامية، وأن تعطي الصيغة المعاصرة للولع الابدي للرب والانسان .

- «أنت جائر وقلبك لا يعرف الرحمة، لقد استمعت اليك مرة ومرات، أيها الصوت البغيض القاسي، الذي أستمع إليه عند كل تقاطع أفق عنده لصنع خيار» .

- «وسوف تسمعني دائماً، عند كل تراجع وإرتداد» .

- «أنا لم أراجع أبداً، أنا أسير دائماً نحو الأمام، وأنهمك في كل شيء أهتم به، وأكابد من جراء ذلك وأعاني» .

- «حتى متى ؟» .

- «لا أدري، حتى أصل الذورة، هناك سأرتاح» .

- «لا توجد أية ذرة، هناك مرتفع فقط، وليست هناك أية راحة . إنني أزدري جسمك وروحك وعقلك، ولا أستطيع تحمل هذا الوضع أكثر من ذلك، أنا لا أستطيع أن أظل مسافراً معك الى الأبد» .

هذا الصوت القاسي ، هو صوت [الفرازة - رفيقة رحلتي] ومع أنها أعلنت عن كرهها لي ، إلا أنها بقيت ملازمة لي طوال رحلاتي كلها ، لقد رأينا كل شيء معاً ، أكلنا معاً ، وشربنا معاً ، ومعاً كنا نجلس على موائد الأرض الغريبة ، وكنا نعاني معاً ، ومعاً كنا نتمتع بالجبال ، والنسوة ، والأفكار .

وعندما نثقل بالغنائم ، أونشخن بالجراح ، ونعود أخيراً الى ركننا البارد الهادئ ، كانت هذه الفزارة تشبث بقمة رأسي ، فهذا هو المأوى الذي تبيت فيه ، حيث تمدد نفسها بكل توترها حول جمجمتي ، وتشب مخالبها في دماغي ، كي نقوم معاً باسترجاع كل ما رأيناه ، وكل ما لم نره بعد ، حيث يشعر كلانا بالغبطة لان هذا العالم المرئي وغير المرئي ، سراسخ عميق القرار لا يستطيع أحد تصوره ، فهو فوق قدرة عقلنا ، وأكبر من رغباتنا ، وأبعد من يقيننا ، وكنا نتحدث - كلانا ، الفزارة رفيقة رحلتي ، وأنا ، ونضحك لاننا ، - أنا وهي - ما نزال نمتلك الصلابة والشبوية ، وعدم القناعة ، وإننا ندرك أنه كي نتأكد ليلة واحدة فقط ، فانه يتوجب علينا أن نتعشى من راحة الأرض ، كي نشعر بالقناعة . وحين نكون في قمة حيوتنا أوفي دوامة الأسى الحار الذي لا يحتمل ، كنا نراهن على جعل الرب المرتعش يصرح بأغانيه الشجية للانسان الفقير البائس .

إلهي ، يا لها من غبطة ، أن تعيش ، وترى ، وتلعب مع هذه الفزارة العظيمة ، ولا تشعر بالخوف .

وتنهض ذات صباح لتقول :

- «كلمات!! كلمات!، لا يوجد خلاص آخر، ليس في عماد قوتي من شيء، سوى أربعة وعشرين جندياً صغيراً، سأقوم بتعبئتهم، وسأقوم بتحريك الجيش، وأهزم الموت».

وأنت تدرك جيداً أن الموت لا يهزم، ولكن قيمة الانسان ليست في النصر، بل في النضال من أجل صنع النصر، بل أن المهمة أصعب من ذلك، فأنت تدرك أن قيمته ليست في النضال من أجل النصر، وإنما في هذا الشيء فقط: ان يعيش ويموت شجاعاً لا يأبه بالمشوبة والاجر، بل أن هناك ثلاثة الاثافي، وهي أصعب هذه الأشياء جميعاً: وهي الايمان بأنه لا توجد هناك أية مشوبة قادرة على أن تملأك بالغبطة والفخر، والبطولة

* الفزارة: هي انثى الببر، والببر سبع هندي مخطط، غير النمر، ويدعى عُسد وخرناق، وتطلق على المرأة المتممة.

* الهنادة: امرأة عند قدماء الاغريق، من عرائس الماء، تغوي الملاحين، بحسن غنائها وتودي بهم.

نحو أرض الميعاد

البحر الذي كان يحمل الحجاج الى القدس، كان هادئاً، والسماء
بغيوماً الرقيقة، كانت قد اتسحت بغلالة شفافة ساحرة غريبة. أما
شواطئ اليونان، وجزرها، ونوارسها، ودلايينها المرحية، وطيورها
الصغيرة التي ترفرف وتغرد بين أشعة السفينة، فقد ساهمت كلها في بث
جو من الدفء والسحر، النادر في نفوسنا، هذا اليوم.

كنت أراقب رفاقي الحجاج المسافرين بفضول. وأتساءل: ما هي
الدرجة التي وصل اليها الانسان المعاصر، بعد تسعة عشر قرناً من
السعي، والانجازات، التي دفعته لتحقيق هذا العشق العميق، في مغادرة
بيته، والبدء في هذه الرحلة الشاقة والمكلفة، الى الشرق، بين العرب،
للعبادة في هذا المعبد المسيحي، الذي لم يعرف كنهه بعد؟

لقد جاءوا من مختلف أنحاء اليونان، وتجمعوا في هذه القافلة
الدينية، بعضهم حمل معه أمتعته وصناريقه، وآخرون حملوا معهم صراً
بسيطة، وسلاًلاً. وحال صعودهم الى السفينة انقسموا الى عالمين
مختلفين، النصف الأول على السطح، والنصف الثاني في مجرات،

وصالونات مريحة تصدح فيها الموسيقى .

أخذت أسير جيئة وذهاباً، بين هذين العالمين، كانت البطانيات الملونة، والأغطية الملونة بالشحوم، منتشرة على الجبال، قرب محركات السفينة . وكانت مجموعة من النسوة الهرمات قد فتحن سلالهن وبدأن المضغ، فامتلاً الجوبرائحة الكافيار الاحمر، والبصل . وفي وسط هذا الجمع، كان رجل عجوز، متورد الخدين، متهدل الشعر، يجلس، وهو يقرأ بصوت عال تاريخ المسيح : حياته، الأمة، كيف ذهب الموكب الى القدس، وبعد ذلك كيف تناولوا العشاء الاخير، وكيف تركهم الحواري الخائن على وجه السرعة، وكيف ذهب المسيح الى جبل الزيتون، وكيف كان العرق يتصبب من جبهته على شكل قطرات من الدم . . .

كانت النسوة الهرمات، الملتفات بشالاتهن السوداء يستمعن بانسحاق شديد، يهززن رؤوسهم، ويتنهذن، لكن دون أن يتوقفن لحظة واحدة عن المضغ، كن يمضغن بتبلد، وهدوء، كالنعاج . لقد تحول الرب مرة اخرى الى انسان يسكن قلوبهن البسيطة، لقد تحول الى انسان يصلب على الصليب الرهيب، ليحمي الجنس البشري مرة أخرى .

رجل عجوز آخر، كان يدير ظهره لمجموعة النساء، ويستمع، وقف متوكئاً على عصا الرهينة، التي نقش طرفها العلوي على شكل رأس طائر وفجأة، وفي الجزء الذي يكاد فيه المسيح أن يموت من الظمأ، صرخ بقوة :

- «أنا ظامئ» -

فوقفت امرأة شابة بدينة على قدميها مُستثارة، واطلقت هي الأخرى
صرخة رهيبة لا تحتمل :
- «ولدا»

شعرت بقلبي يتمزق بعنف، من جراء هذه الصرخة الامومية العميقة
التي يصعب فهمها، صرخة هذه الام التي جعلت الرب ابناً لها .
بدأ غسق الاثنين المقدس ينشر سدوله، ونهض راهب قروي طويل،
منحن، ونزع غطاء رأسه الكهنوتي، وترك شعره الأشيب ينسدل على
كتفيه، وبدأ يترنم بتراتيل صلاة المساء، تاركاً تراتيله تمتد عبر البحر.

وقبل أن يمضي اليوم التالي، الثلاثاء المقدسة، كنا قد تركنا بحر
ايجه خلفنا، ودخلنا إلى الأناضول . على يميننا افريقيا التي أصبحت لا
تبين، وعلى يسارنا، خلف الافق، قبرص . كان البحر متلاثاً، هادئاً،
دافئاً، وكانت هناك فراشتان سوداوان مزركشتان بنقاط حمرة، تطيران فوق
جبال السفينة، وطائر دوري سغب، يطاردهما، وقد انقضّ الدوري على
احدهما وأكلها، مما حدا بفتاتين صغيرتين للتقزز والصراخ، فصاح بهما
احد الرجال بشدة :

- توقفا، هذه هي طريقته للحفاظ على كينونته، ماذا تعرفان عن الرب،
هل تعتقدان أنه مجرد سيدة رقيقة؟

وأنا أدنو، كان يتتابني شعور عميق، تجاه هذه الارض التي لوحتها
الشمس، هذه الارض التي توهج منها ذات يوم، ذلك النور الذي انبثق

من بيت صغير وضع في الناصرة ليضيء ، ويبعث الحياة والنشاط في قلب البشر. وها أنا أتذكر رحلة الحج الأخرى التي قمت بها الى موسكومند أشهر قليلة ، رحلة الى القدس الجديدة ، قدس القلوب الهائجة الثائرة. أتذكر الثلج ، الخطوات الساكنة التي لا حصر لها ، الضجيج ، والطائرات الرمادية في السماوات ، وتحتنا على الأرض ، جمع كالنمل من البشر: عمال وفلاحين ، احدودبت ظهورهم من العمل والالم ، ومن كل الاجناس : بيض ، صفر ، وسود ، تجمعوا كلهم حول ضريح مقدس آخر.

هذه الايام تجد الحياة نفسها قد عادت الى نفس الحالة من الانحطاط التي كانت سائدة منذ ألفي سنة ، لكن المشاكل والقضايا التي تسحق العقل والقلب هذه الايام ، أقسى وأعقد ، والحل أكثر صعوبة ودموية . في ذلك الوقت ، ظهر على الأرض ، صوت عميق القرار ، رقيق ، فجعل الخلاص ينبثق على هذه الارض كينبوع رباني . أما في هذه الايام ، فان كلمة المسيح لم يعد لها نفس الوقع ، ولم تعد قادرة على كبح جماح الروح ، أو توجيه الافعال . لقد فقدت تأثيرها . لكن ماذا يعني هذا؟ هذا يعني أنها لم تعد تملك مقومات حقيقتها . عندما يقولون للجماهير العاملة (هذه الجماهير ، مقدر عليها هذه الايام أن تجد إجابة جديدة) ان هذه الحياة الارضية ، لم يعد لها أية قيمة ، وانها ليست سوى اعداد من أجل حياة مستقبلية بعد الموت ، نجد أن هذه النقطة تتناقض كلياً مع خبراتنا الروحية الحديثة . وحاجاتنا المعاصرة . لا يستطيع أي انسان يعيش هذه الايام أن يصدق ذلك . ولهذا ، فان هذه العظة لم تعد تملك مقومات حقيقتها .

نحن لم نعد نهتم بواجب الانسان في الحقب التاريخية الماضية، ولا نكثر لذلك. (الواجب يعني الصيغة التي يقابل بها الانسان فضل الله) ولم نعد نكثر بما سيكون عليه الواجب في المستقبل البعيد، ما يهمننا هو: ما هو الواجب الآن؟ هذه هي مصيبتنا الكبرى، فاذا اتخذ الرب في يوم من الايام صيغة ديونيسيوس*، أو يهوه، أو المسيح، أو آريوس** أو ابراهيم، فهذا لا يشكل لنا هذه الايام سوى قيمة تاريخية، أما الصيغة المعاصرة له، فهي ما يجعل قلوبنا تشرق بالدم والدموع.

الصيغة الحديثة للرب، هي ان تتقلب هذه الجماهير داخل مصانعها وأكواخها، وقلوبها الميتة، التي تكاد تختطف من صدورها، يجب أن يشبه الرب صيغتهم الخاصة. يجب أن يشبه العمال الذين يجوعون ويعملون، ولا يحتملون الظلم كثيراً فيثورون عليه. يجب أن يكون زعيماً كزعماء الاناضول القدماء. يرتدي حذاء من جلد الماعز، ويضع بلطة بشعبتين في حزامه الجلدي، مثل جنكيز خان الذي قاد القبائل الجائعة، كي ينهب خزائن المتخمين، ويسبي نساء العننين*

والآن، ما هو الهدف الذي انطلقنا من أجله الى القدس؟ وهل لدينا كلام أكثر من هذا لنقوله، ونتحدث به مع ابن مريم.

مع هبوط الظلام، حين كانت الشمس تغرق في مياه البحر الهادئة، خلفنا، والقمر يطلع من جهة الشرق ساكناً وحزيناً كقناع الموت الذهبي، قام احد القساوسة ليقم احتفالاً يليق بالصلاة المقدسة للثلاثاء المقدسة. لقد سمعت صيحة (كاسياني)* الشهوانية المؤثرة في حضرة الله، عندما

سحت لي الفرصة للدخول إلى الكنائس الجبلية الريفية الصغيرة في فصل الربيع . كان النواح النسوي المكروب ساحراً وفتاناً ، وأنا أنظر من خلال النوافذ ذات الصلبان ، باتجاه الريف المفتوح والممتد خلفها لكن هذه الليلة ، فإن نواح المرأة الذي جاء على شكل صيحات مؤثرة ، تدعو الله أن يحميها من زوجها الذي سقط في البحر ليتحرر من احزانه . كان مختلفاً . البحر يثير القلب ، يطلق العنان للقلق والأسئلة التي يهدئها العشب الأخضر الندي .

كنت أنظر إلى الناس المحيطين بي ، كان الأثرياء الذين يرتدون الملابس الأنيقة غير مباليين ، لا يظهر عليهم أي احساس بالفرح أو الحزن ، لقد نهضوا ، ثم عادوا للجلوس ، وهم ينظرون إلى ساعاتهم ، أما الفقراء الذين كانوا يجلسون في الصف الثالث ، فقد كانوا ينصتون باهتمام ، كانت وجوههم مشرقة ، وقلوبهم تكاد تثب من بين ضلوعهم ، وخلال لحظات كانت وجوههم ، وأيديهم ، حتى ملابسهم البالية تتورد بفعل هذا الاستغراق الإلهي . وحين ينتهي هذا الأسبوع المقدس ، الأسبوع الذي يعاني فيه الرب كما يعانون ، فإنهم سيعودون مرة أخرى ، إلى أيامهم المظلمة التي لا حياة فيها .

وعندما تربع البدر في كبد السماء ، استؤنفت الأحاديث الجانبية ، كانت امرأة عجوز تحدث حفيدتها عن حياة وآلام المسيح ، وكانت الحفيدة الصغيرة تستمع إلى تلك القصة المروعة ، وكأنها تستمع إلى قصة خيالية ، كانت ترتجف وهي تتابع ذلك الأمير الذي يسير نحو حتفه ،

أما أنا فقد كنت ألتف بعباءة الظلمة واستمع ، وقد كانت هذه هي المرة الأولى التي أفهم فيها سيرة موت المسيح بهذه البساطة وهذا التأثير .

لقد قال الحاخام نعمان* ذات يوم :

- عندما تخطر ببالي فكرة ، فإنني أتركها تتفاعل داخلي بقوة وبلا ارادة ، لكنني حين ابدأ بقصها على الآخرين ، فإنها تكف عن كونها مجرد فكرة ، وتحول إلى اسطورة .

وهذا هو ما حدث بالضبط ، فهذه الجدة ، ذات القلب المغرق في بساطته ، هي وحدها القادرة على جعل هذه السفسطات الدينية التافهة ، تتفاعل داخلها ، كي ترتقي بها إلى مستوى الأسطورة .

عندما انزويت في حجرتي ، وتمددت أخيراً على سريري استعداداً للنوم ، سمعت حديثاً غير متوقع ، لقد كان عدد من الرفاق المسافرين ، منشغلين في جدل حاد في مخزن السفينة ، أحدهم ، والذي توجي نبرات صوته أنه ما يزال في مقتبل العمر ، كان يتحدث بحماس ، وبتفكيره الضيق عن هذا الهوان الغريب الذي ألقى بظلاله على حياتنا الاقتصادية والاجتماعية :

- أكاذيب ، سرقات ، مظالم ، عامة الناس يعانون ، والكبار يزدادون ثراء ، النسوة يبعن أنفسهن ، والرهبان عديمو الايمان ، هنا ، على هذه الأرض توجد الجنة والنار ، هنا ، في هذه الأرض ، يجب أن نطالب بالعدل والسعادة ، لأنه لا توجد حياة أخرى .

أما الآخر، فقد كان يتحدث عن روسيا، يتحدث بشكل تخيلي مثار، كل شيء هناك يبدو صحيحاً، ومقدساً، وكانت كلمات مثل «البروليتاريا»، «صراع الطبقات»، «لينين» كأنها رموز وثنية مقدسة. وكانت تخرج من أحشائه كأنها نار رسولية، تصلي شففيه. وكانت الصرخات تتعالى:

- نعم، نعم، أنت على حق. النار والفأس...
وكدت أميز صوت الشمس الخارق، الذي كان مسافراً معنا، والذي كان يريد الاحتجاج على هذا الكلام، ولكن صوته غرق في خضم هذه الصيحات والضحكات. أما صوت الرقص الصامت، فقد أخذ يعلو.
رفعت رأسي بسرعة عن الوسادة، وأخذت استمع باهتمام وشوق. وقد تخيلت في تلك اللحظة، أن مخزن السفينة، سيكون شبيهاً بالمداخن الديماغية* الجديدة. حيث يتجمع رفيق أيامنا المعاصرة، للتآمر على تدمير الأرض. وقد تغلبت بصعوبة بالغة، على صيحة ابتهاج كادت تغلت مني، فنحن في طريقنا لعبادة الوجه المألوف للرب. هذا الوجه الرقيق، وجه الشهيد المليء بالوعود، وبالثواب المستقبلي، بعد الموت. كانت النسوة الهرمات قد احضرن الهدايا لتقديمها له: شموع، هبات فضية، وصلوات حميمة حارة. أما الكفرة، الذين يحتلون الطابق العلوي من السفينة، فلم يكثرثوا بهذا الأمر، بل كانوا يتحدثون في شؤون المال والسياسة. وفي الأسفل، في مخزن السفينة، كنا نتخاطف تلك الهبة العظيمة، تلك النطفة الجديدة، لجنين الرب، الذي لم يتكون بعد.

لقد شعرت مرة أخرى، باحساس داخلي عميق، بهذا العصر الزائل الذي نعيش فيه، هذا العصر الديني الحاني، في طريقه إلى الزوال، ليحل محله عالم آخر، قاس، يطفح بالدم، والوحل، والنار، ويضج بالحياة. عصري يزغ من الأرض، ومن قلوب البشر. ويلقي بظلاله على سفننا ورحلاتنا.

في الصباح، ومن خلال الضباب الحليبي الرقيق، أخذت أرض الميعاد تلوح في الأفق البعيد. في البداية ظهرت كشريط فوق البحر، وبعد ذلك لاحت الجبال المنخفضة لـ (يهودا) كانت رمادية في البداية، ثم اكتست بلون أزرق شفاف. وأخيراً غرقت في نور النهار الشديد. وقد ظهرت حيفا داكنة بجانب الرمال البيضاء امامها. وعلى يسارها ظهرت المدينة اليهودية الجديدة تل أبيب «تل الربيع».

بدأت نوارس البحر السغبة تحوم فوقنا، وأخذت اسراب الفراش ترفرف فوق الجبال. ونهضت النسوة الهرمات على اقدامهن، وأخذن يجمعن صررهن، ويربطن المناديل السوداء حول رؤوسهن، ثم قمن برسم اشارة الصليب، وانخرطن في البكاء.

رمال، حدائق، نساء عربيات ذلقات اللسان، اشجارتين بري، قطوف تمر، سيارات القباز تترك خلفها وهي تصعد باتجاه المدينة المقدسة. وقلوب تدق بعنف. وفجأة ظهر أمامنا ذلك المنظر الحجري المتجهم، الذي تعرض لحرارة الشمس الشديدة، والتبخر. أرصفة، اسوار، ابواب حصينة، جلابيات بيضاء، شالات خضر وحمر، رائحة

التوابل الشرقية، فواكه مثورة، عرق بشري، صيحات هائجة منذ آلاف السنين، اشباح تخرج من قبورها، وحجارة مروية بالدم، كل هذه الأشياء كانت تطلق صيحاتها، وكأنها قد عادت إلى الحياة من جديد.

-
- * ديونيسيوس: الحمر والمرح (القصف) عند اليونان.
 - ** عقيدة آريوس تقول بأن الابن ليس من جوهر الأب!.
 - * العنين: هو الرجل العاجز جنسياً.
 - ** كاسياني: شاعرة رومانية، من القرن التاسع الميلادي.
 - * الحاخام نعمان: مؤسس فرقة «الحاصدين» الدينية في براتزلاف (بولندا) وهو حفيد الحاخام اسرائيل بعل شيم توف، المؤسس الأول للفرقة.
 - * المدفن الديماسي: مدفن في قبو أو سرداب.
-

القدس

صباح يوم السبت المقدس، كنت أقف عند مدخل القبر المقدس . وكانت كنيسة القيامة تطن كأنها خلية نحل عظيمة . وكان المسيحيون العرب الغائموا العيون، المنفعلون، الذين يطلقون الصيحات، يرتدون الطرايش والجلابيب الملونة، ويتسلقون السطوح القرميدية . أما الرجال والنسوة، الذين قضوا ليلتهم هنا في هذا المكان، فقد كانوا يتمددون على حصر من القش، وسجاجيد، وخرق، تحت أعمدة الكنيسة . بانتظار تلك اللحظة، التي أصبحت الآن في متناول أيديهم . تلك اللحظة، هي التي يبزغ فيها النور الرباني، من مظلة هذا القبر المقدس .

كانت اباريق المياه الرمادية، بزخارفها العربية البرتغالية، والمشروبات الروحية، والشربات*، وعصير الليمون، تنتقل من يد إلى أخرى، خلال هذا الجمع الذاهل الذي يخيم أمام الكنيسة .

وكانت اباريق القهوة تغلي على المواعد المتنقلة تحت الايقونات العظيمة، والامهات يكشفن عن صدورهن، أمام هذه الجموع الغفيرة، ليقمن بارضاع اطفالهن، وكانت رائحة العرق البشري النتنة تملأ الجو . وكانت رائحة الشمع المحترق، والزيت، ورائحة شعور النساء، كلها

تصدر رائحة كرائحة المواشي ، وتبعث على الغثيان . أما الرائحة النتنة التي تشبه رائحة الماعز التي تنبعث من الرجال العرب ، فقد كانت لا تحتمل . ضحكات ، دموع ، تنهدات ، والرجال ، بعضهم يرتل ويترنم ، والبعض الآخر ، يقضون أوقاتهم مع زوجاتهم تحت البطانيات الملونة ، في الزوايا المظلمة للكنيسة ، وحينما تعبر من خلال هذا الجو الخائق ، تفاجأ بالضحكات التي تترقرق من الفتيات الصغيرات اللواتي يدغدغن .

سيد حبشي نحيل أهيئ ، كالنخلة ، كان يتمشى بين الجموع . وهو ملفوف بعباءة حريرية خضراء ، وامرأة عربية جاءت وركعت قبالي ، كانت امرأة سمينية ، كثيرة الشحم ، بعينين سوداوين كعيني حيوان نهري . كان نهداها المترهلان يلامسان بطنها . وكانت الأنفاس تتردد واحداً بعد الآخر . وكانت الروائح المختلطة تهب علي . بعضها يحمل رائحة الخمر والثوم ، وبعضها يحمل رائحة الشموع المحترقة والبخور واللبن ، وبين لحظة وأخرى كان يداعب أنفي شذا رائحة زهور الربيع السماوية . فقد جاءت إحدى الفلاحات وهي تحمل باقة من الزهر ، ووضعتها على القبر .

وفجأة ، اندفع حشد من الرجال ذوي الشعر الأسود ، الذين يرشحون عرقاً ، لينضموا إلى هذا البحر الهائج من المتعبدين . لقد جاءت موجة جديدة من العرب لتصب في الساحة ، وكان يحيط بكل منهم ستة أطفال من جميع الجوانب ، وكان الأطفال يحملون فوانيس وشموعاً كبيرة بحجم أجسامهم . وقد قام الرجال الأشداء المعتدلون من الانجليز ، برفع عصيهم إلى الأعلى لحماية رؤوسهم . وقد تقدم رجل عجوز وهو يرغي

ويزبد، واعتلى اكتاف هذا الحشد البشري الذاهل، وأخذ يقفز من كتف إلى كتف وهويلوح بسيفيه المشرعين، في الهواء. كان يرقص فوق الأكتاف، ويطلق صيحاته، ولم يكن يظهر منه سوى بياض عينييه، والشموع التي تحيط بخصره، والتي تنصهر وتقطر بفعل الحرارة الشديدة.

بعد برهة قصيرة، نزل الأرمن إلى الساحة، كانت راياتهم ترفرف في الهواء، وجوقة المرتلين من الفتیان الذين يرتدون القمصان الصفراء ترسل أصواتها في هذا الجوال المزدهم. بعد ذلك جاء دور الأقباط، والربان، والأحباش، ورعاة البدو، والموارنة. وكان هناك خمسة أو ستة من الروس ذوي الشعر الكتاني جاءوا من تلك الأقاليم الروسية الشاسعة. وبعض الأمريكيين المتجمدين من البرد، والذين كان منظرهم يثير السخرية وسط هذا الأتون الآسيوي المتوهج. بعد ذلك تقدمت نسوة بيت لحم، وهن يرتدين عصابات الرؤوس المخروطية الطويلة. وشالاتهن البيضاء الناصعة. ورمين بأنفسهن داخل هذه الأمواج المختلطة الألوان، في تناغم منعش وعنيف، يشبه احتفالات عودة القوات المحاربة.

فاضت الساحة بالمتعبدين الذين تسلقوا الأعمدة، واحتلوا مقاعد الكنيسة الطويلة، وأوشكوا على الدخول إلى القسم المخصص للنساء. وكانت العيون كلها تتطلع باثارة، وترقب، ووله، وكانت كلها مسمرة على مركز الكنيسة، على تلك المظلة الصغيرة التي كان قد دخلها البطريك للتو، والتي سينبثق منها بين لحظة وأخرى، ذلك النور الرباني.

أحد الفلاحين، كان قد عصب رأسه بأشرطة من وبر الجمال، وقفز

على كتفي أحد العرب، وأخذ يلوح بشمعة عيد الميلاد الضخمة البيضاء، التي تتطاير الأشرطة المربوطة بها، في الهواء. وأخذ هذا الفلاح، بشكل مسعور وهائج، يدعو المسيح للظهور. وقد أحست الجماهير بهذه الروح البربرية تتغلغل في أجسادها، فأخذت الأذرع السمراء تضرب بعنف، وأخذت الأساور التي تزين معاصم النساء تصطخب، ولمعت أظافر النسوة المطلية بالحناء كقطرات من الدم. وشخصت الرؤوس كلها: الأناضولية، والعربية البدوية، والحبشية، وأخذت تطلق صيحاتها وضحكاتهن وتنهداتهن، وقد أغمي من جراء ذلك على رجل في ريعان الشباب، فسارع الجنود إلى حمله وتمديدته في الساحة. أما العجوز الماروني الهزيل الذي يرتدي عباءة ناصعة البياض، ويتمنطق بحزام أحمر، فقد سقط على السطح القرميدي، والزبد يتصاعد من فمه، مما حدا إلى اندفاع موجة غوغائية من النسوة الهرمات اللواتي وشمعن أذرعهن وذقونهن بالصلبان، والخيانات* وفقرات من الكتاب المقدس، والقين بأنفسهن فوقه، وشرعن في صراخ شبيه بصراخ المصابين بالصرع، فقد اعتقدن باحساسهن الفطري، بأن روحاً رهيبة لا مرئية، قد حلت فجأة في هذا الجسد المرتعش المتشنج.

رقعة المرمر العظيمة، التي تغطي قطعة الأرض التي مدد عليها السيد المسيح بعد قيامته عن الصليب، كانت قد مسحت وحت بفعل القبل. فمنذ قرون عديدة، وهذه الحشود البشرية تنحني فوقها، تقبلها، وتسحتها، فهي تقوم بتمرير كفوفها برفق فوق المرمر، ومن ثم تقوم بتمرير وجوهها وأعناقها فوقه ثلاث مرات. وكما يقول بوذا، فإنه لو مرت يوماً

خلال كل ألف سنة ريشة من ريش الطاووس على جبل غرائتي ، فإن هذا الجبل سيحت ، ويختفي . وهذا هو ما يحدث بالضبط هنا . فهذه الأقدام التي لا تعد ولا تحصى للمؤمنين ، قد حثت قرميد الكنيسة ، والساحة ، وقبر المسيح ، وطريق الجلجلة ، والصخرة التي دحرجتها الملائكة ، لقد امحى كل ذلك بفعل شفاه الناس .

راهب ارثودوكسي ، كان يرسل نظرات حاقة صفراوية ، نحو الاقباط والكاثوليك ، والأرمن ، انحنى علي ، وقال لي بصوت مرتعش :

- هذه الكنيسة كلها ملك لنا نحن الأرثودوكس ، كل الأماكن المقدسة لنا ، وهؤلاء المارقون الذين لعنهم الله ، يريدون أن يأخذوها منا . ولكننا نقوم بتسييج كل المناطق المتنازع عليها بالعوارض المعدنية ، كي لا نسمح لأي انسان أن يدخلها . أنظر ماذا أعطينا للأجباش ، تلك الصخرة فقط ، ولن نعطيهم بوصة واحدة أكثر من ذلك . والآن سنلقي بأولئك الأرمن خارجاً ، لقد تجاوزوا مناطقهم ، وهم يقفون الآن على أرضنا . كل ما قاله لك أولئك الكاثوليك زيف وافتراء . كل اماكنهم الدينية مزيفة ومزورة ، وكم أرجو الله أن يأتي ذلك اليوم الذي نستطيع فيه أن نلقي بهم إلى الخارج .

أجبت :

- أرجو من الله أن يأتي ذلك اليوم الذي تمتلئ فيه قلوبكم بالحب ، وأرجو الا يطول انتظاركم لذلك النور الرباني الذي لا يأتي ليشعل

شموعكم فقط، بل ليضيء عقولكم المعتمة، المعادية للمسيح والمسيحية.

مرت موجة من الفلاحين بيننا، وفصلت بيننا، كانوا يدلعون ألسنتهم، يصفرون، ويضحكون، وكانت عيونهم متآكلة منفرجة بفعل التراخوما، وكانت أسنانهم بيضاء ناصعة. كان الرجال طوال القامة، نحيلين، رشيقين، أما النسوة فقد كن سمينات، قبيحات، تتدلى على جباهن صفوف من القطع الفضية. وشفاهن تبرق بالحماس.

أما الآن، فقد بدأ إيقاع جميل، يسمع بالقرب من المذبح. لقد أخذ المساعدون يدقون بإيقاع منسجم بعصيتهم الفضية على القرميد. ثم تقدموا ببطء، وفتحوا الممر. فدخلت جوقة الأطفال المرمنين، وتقدمت، ثم دخل المديون، وتبعهم الاساقفة بثيابهم الكهنوتية المذهبة. ودخل البطريك بلحيته البيضاء الثلجية. وعينيه المجهدتين، ثم ظهرت الاصابع المخروطية على عتبة الكنيسة.

وبدأت الاحتفالات، فقرعت الاجراس، وهبت رياح الظهر والقداسة فوق الرؤوس المختلطة، فشعلت بصورة أكبر، بحرارة هبة الرب في قلوب البشر. فقد ارتفعت الايدي، ورقصت الاقدام، ووثبت القلوب، وعلت الصيحات للرب المخلص. والقت روح لامرئية ظلالها على الاجواء. وقد تأكد لي في ذلك الوقت، أنه حتى لو لم يحضر الرهبان والمثقفون الى الكنيسة، فان الفلاحين كانوا قادرين وحدهم على بعث الرب. كانوا قادرين على إجباره على التكون في السماء، ومن ثم النزول

الى الارض، وباقصى سرعة، كفكرة أو خيال . ولكنه سينزل هذه المرة بهيئته وصوته . ليقدموا له السمك والعسل ، وسيكون قادراً على الأكل . وسيكونون قادرين على لمسهم وملء أيديهم به . وعندما يسير على القرميد، سوف يتردد صدى خطواته .

احد الفلاسفة الهنود قال :

- ليس للرب آذان، فهو لا يسمع، ولكن الانسان الغارق في الألم والمعاناة، يصرخ، فيضطرب الله، بالقوة، ان يخلق لنفسه آذناً، لسمع ويلات البشر.

وأنا أنظر الى الفلاحين هذا اليوم، أدركت الطريقة التي خلق بها قلب الانسان، السموات والارض، والطريقة التي أنزل بها هذه القوى اللامرئية وكساها جلدها، ومنح هذا المدى الاخرس صوته .

انحنى البطيريك ودخل المظلة المقدسة للقبر المقدس، وحده، وطفى السكون على هذه الجموع المحتشدة الصاخبة، ورفعت الامهات أطفالهن على أكتافهن ليروا ما يحدث، ووقف الفلاحون فاغري الافواه يراقبون، أما الاوروبيون فقد وقفوا على رؤوس أصابعهم وأخذوا يراقبون باهتمام وترقب. كانت الثواني تمر بطيئة ثقيلة على هذه الرؤوس. وقد توتر هذا الجمع الصاخب كما يتوتر جلد الطبل، وفي الحال بزغ ذلك الانف من الباب السفلي للقبر المقدس، وظهر البطيريك وهو يحمل مجموعة من الشموع ذات الضوء الابيض، فانتشر الوهج، حتى غطى الكنيسة من أرضيتها حتى سقفها، وغرقت الكنيسة فيما بعد بالشموع

المشتعلة، فقد اندفع الجميع باتجاه البطريق، للوصول الى الضوء، بعضهم كان يحمل شموعاً سميكة بيضاء، والبعض الآخر، كان يحمل ثلاثاً وثلاثين شمعة صغيرة بيضاء، ووضعوا أيديهم فوق لهب الشموع، ثم مسحوا بها وجوههم وصدورهم، ثم اندفعوا خارجين الى الساحة، وهم يحيطون لهب الشموع المشتعلة بأيديهم، وهرعوا الى بيوتهم.

خلت الكنيسة من البشر، خلت من هذا الحشد الجماهيري المذهل، وهذه الجموع الحاشدة الهائجة، وقد بدت لي هذه الجماهير المتعددة الاجناس كحلم غريب لا يصدق، لكنني حين انحنيت، وأنا أقوم بجولتي المنفردة داخل الكنيسة، أدركت أن هذا المشهد الاناضولي الرهيب كان حقيقياً، فقد رأيت على الارضية القرميدية، بقايا آثار هذا المشهد المروع: بذور القرع، قشور البرتقال، أنوية الزيتون، وشظايا الزجاجات المكسورة.

* الشرابات : شراب مثلوج من عصير الفاكهة المحلى ، واللبن .

* الخيلانة : جنية البحر .

فصحیة*

بعد ظهر عيد الفصح، قمت بجولة في كنيسة الانبعاث، التي كانت تتوهج بالأضواء، وكانت زهور الليمون المبعثرة المسحوقة، تملأ الجو برائحة حمضية نتنة. وكانت امرأة عجوز ضئيلة الجسم تنحني أمام الحجر وتبارك مقتنيات مهر ابنتها بالصليب، أما ابنتها الشاحبة الوجه، فقد كانت تقف الى جانبها، وتقوم بتسليمها هذه المقتنيات واحدة بعد الاخرى، وكانت الام الغارقة في الحزن، تمررها فوق الحجر المتوهج، وهي تهمهم بتعاويد سرية قديمة. لقد كانت تأمل أن يصبح قميص النوم المنسوج من خيوط سمكة، ثوب زفاف. وهكذا توالى المقتنيات: جرابيات أناضولية زهرية اللون، وسائد، ملاءات، مناشف، أساور نحاسية، وأقراط وسلاسل فضية. . . وكانت الفتاة الشابة، تقف بلا حراك، كحيوان لم يأت دوره بعد. تناول مقتنيات العرس المباركة، من يدي امها العجوز، وتضعها مباشرة وبعناية فائقة، في حقيبة سفر صفراء مصنوعة من الصوف.

وكان الرهبان الافرنجيون يمرون بالقرب منها، مجهدين: أرمن بأنوف خطافية، وأحباش نحيلون، يتوقفون قليلاً عند الايقونات، وكانت

لاجسادهم الغارقة في العرق رائحة القمح المشوي .

وتحت قوس مقام بين عمودين ، كان يقف راهب عربي ، ضئيل الجسم ، نحيف ، ذولحية خفيفة سوداء ، يسند ذقنه على عارضة عكازه ، ويحديق في الارضية القرميدية ، بعينين جامدتين ، وكانت امرأة عربية شابة ، ملتفة بعباءة سوداء ، تحمل شمعة عيد الفصح البيضاء ، تقف الى جواره ، وتبكي . كانت هي الاخرى نحيلة ، ذات عينين واسعتين ، كانت تتحدث بلطف ، وبحب مع ذلك الرهب الشاب ، دون ان ترفع بصرها نحوه ، أما أنا فقد استندت الى احد الاعمدة ، واخذت انصت ، ولفترة طويلة ، لنحيب تلك المرأة الخفي الغامض ، كنت أنصت لذلك النحيب ، وكأنني استمع لخريرجدول صغير ، يشق طريقه بصعوبة نحو البحر ، فوق الحصى البلوري الشفاف فلم أكن قد أحسست من قبل بقلب يذوب وينصهر ، في بوتقة الحزن ، كانصهار قلب هذه المرأة ، الذي ينصهر وينساب بهدوء تجاه الرجل .

كانت هذه هي الغبطة الوحيدة لي هذا اليوم ، لذلك فقد أخذت بعد ذلك ، أتمشى جيئةً وذهاباً في الكنيسة دون جدوى ، فقد أحسست وبشكل مطلق ، بعدم وجود أية اشارات لاي انبعاث داخلي ، وتذكرت جبل Athos ، وعهد الايمان الشديد الذي قطعته على نفسي .

ذهبت إلى جبل Athos كي أعيد الهدوء والاطمئنان الى قلبي ، ولأرى تلك الصحراء المشرقة ، لانني أنا أيضاً كان يتملكني إحساس بأنه عندما يهبط الظلام ، وفي اللحظة التي تغرب فيها الشمس ، سيكون بإمكانني

استقبال الرب على عتبة البيت . كانت نيران كثيرة لا حصر لها تشتعل داخلي : شهوة يعجز الحديث عنها تجاه المرأة ، الرب ، والافكار ، ولم أكن قادراً على التمييز بين هذه الرغبات ، فلم تكن أية واحدة منها قد اتخذت شكلها الخالص بعد ، كنت أريد أن أبعث القلق والتغيير داخلي ، وبأقصى ما أستطيع ، كنت أريد أن أبعث كل القوى الطبيعية ، والمواريث القديمة ، والانفعالات الجديدة . وفكرت :

- «آه ، الحب والهدوء ، سيفوران لي كل شيء ، نعم ، انهما القوتان البدائيتان اللتان ساعدتا الله ساعة الخلق ، آه ، ما أجمل أن تبقى وحيداً ، حراً ، بعيداً عن روتين المجتمع المثير للضجر ، وخارج حظيرة هذا القطيع البشري ، ما أجمل أن تسير وتسير ، ولا ترى شيئاً سوى الشمس ، والبحر ، والصخور ، وتحس ما في الداخل يرفرف ، كورقتين متفرعتين من شجرة الله العظيمة» .

وظهرت الاديرة البيزنطية أمامي ، مرتفعة فوق الامواج ، متألقة وباردة ، كالصخور التي تظهر فجأة من الماء ، وتظل تقطر ، وعلى شاطئ البحر ، بالقرب منها ، ينحني الرهبان وهم يجرون بقوة الشباك المملوءة بالسماك ، وعلى بعد مسافة قصيرة ، قارب صغير ، كان قد جرّ الى المسفن* . كانت مجاذيفه ترتاح عل صوره ، وهو مستلق في منعزله ذلك ، يستحم بأشعة الشمس .

«يا لها من معجزة ، ويا له من منعزل ، ويا لها من قدسية» .

هذا هو ما فكرت فيه ، وأنا أتسلق المنحدر باتجاهها ، ثم وأنا أدخل

الدير الأول، وأخطو فوق عتبه الخربة، متقدماً نحو الساحة الخارجية،
تغمرنني موجة من دفء خفي غريب.

وأطلقت صيحة مكتومة:

- «إلهي، أيا كنت، ساعدني كي أسمى بروحي فوق كل هذه المتع
والمسرات، وساعدني في السير في طريق الألم ونكران الذات، من أجل
الوصول الى أسمى درجات السعادة.

كانت الكنيسة المعتمة الباردة تزدهم بالقديسين والملائكة: حمام
حجرية على قمم الأعمدة، حروف مجدولة، رؤوس أكباش، وعرائش
من عناقيد العنب الحجري، آنذاك، أحسست انني محاط بالارواح
الخفية والملائكة، وشعرت بأن الساروفيم* يهبطون من القبة
ويتلمسونني.

كانت عينا مريم العذراء، في تلك الظلمة الباردة، تشعان بالرحمة
والشفقة والأسى، وكان ذقنها الذي يوحى بالقوة، يتورد في ذلك الجو
المعتم العابقى بالبخور.

وقفت في حضرتها وقلت:

- غليكوفيلوسا*، يا سيدة البحر؛ يا قلب الجنس البشري، الذي وسع
الله، الذي لم يسعه عرش السماوات والارض، أيتها المأثرة العظيمة،
أيتها الموزية** العاشرة، يا مريم العذراء البكارة، يا من حملت صرخة
الخطر، كحارس طليعي، يدرك عن بعد حشود العرب الذين يريدون أن
يسحقوا النور السماوي. لقد ظهرت كقائدة عظيمة، تلوحين

بالايلاتيكي *** والبيراكوكودونا **** وبالتسايراسيا ***** الفضية التي كانت ترن، وبصدرك الطاهر الذي يشرق كالبدل لحظة تمامه. إن كل الرجال الشبان سوف يشبون ويقفون على أهبة الاستعداد لقطف ثمار السعادة من الرب ومن الموت، وسوف يندفعون خلفك أيتها الامازونية* لانك ثورين داخل قلبي كنايكي** مسيحية، لا تخشى الدم، وتتبع بخطى ثابتة، إله الحرب على الأرض.

نطق قلبي بهذا الكلام، وأخذ يرقص، وأنا أتنقل من دير الى دير، كنت أريد إختيار أقسى هذه الاديرة، وأكثرها صرامة، لانني أنا أيضاً، كنت أريد أن أستكمل زهدي، لفترة قصيرة من الزمن، لوقت طويل، وربما الى الابد، لم أكن أعرف، كل ما كنت اعرفه، أنه يتوجب علي أن أبقى في هذه العزلة التامة، وهذا الصمت لشهور.

لقد خصصوا لي دير برودروموس، وهو معبد منعزل يطل على البحر، في جرف مهجور، لا ماء فيه ولا أشجار، يصله بشاطيء البحر ممر مشاة منحدر، وبعد مسيرة ساعة كاملة كنت أقف على بابه. وقد خصص لي صومعتان، وأطلال مصلى مغطى بالجبص. وكان برودروموس يقف خلف العذراء في احدى الايقونان على يمين القاطع الايقوني*، كان يبدو خضمر ونحيلاً، مثل جرادة، بعينين صفراوين غريبتين، حيث يخیل للرائي أنه يقف على كعبه، أي أنه لم يكن واقفاً، بل يخیل إليه أنه يقفز من شجرة الى اخرى، ويخیل للرائي أيضاً، أنه يرى لسانين عظيمين من اللهب، وجناحين عظيمين نابتين في جسده، وهذا الجسد النحيل يظهر

لنا وكأن النار قد دبت فيه ، فبدأ يشتعل ، وبعد أن دبت فيه النار، أخذ يقفز ويثب ، كي يحرق العالم كله .

لقد قضيت الايام الأولى القليلة لي ، وأنا منكب على عتبة الدير ، أخطط لحياة الزهد والتقشف ، وأنتقل بين التصورات ، والحسابات المنطقية ، والفروض الهندسية الحمقاء .

كان علي أن أجزيء نفسي الى معسكرين ، العلوي والسفلي ، المضيء والمظلم ، الروح والجسد . وأن أشعل أوار الحرب بينهما ، وقلت : يجب أن أقهر كل رغبات الجسد .

وبدأت أحدد النتائج :

- « إذا كان هذا الجسد يطلب النوم ، فعلي أن أبقى ساهراً ، وإذا كان يرد الأكل ، فعلي أن أصوم ، وإذا كان يطلب الراحة ، فعلي أن أنهض لاتسلق الجبل . وإذا كان يشعر بالبرد ، فعلي أن أعري جسدي وأسير بين الصخور» .

وشيئاً فشيئاً ، أخذت أصوب نحو الهدف الأكبر :

- « عندما أقهر هذا الجسد ، سوف أعود للروح فأقسمها الى معسكرين ، علوي ، وسفلي ، انساني ورباني ، وسوف أحارب هذه المتع الثقافية السافهة : الكتب ، الفن ، المنطق ، والتعليم ، وسوف أحارب القيم المعرفية الراسخة : العدالة ، الرحمة ، الصداقة ، الصبر ، والاحترام . وإذا ما اتبحت لي فرصة اخرى من الوقت ، سوف أسعى الى هدف أسمى ،

الى فصل صارم جديد: أما الهبوط مع الأمل، الذي يعتبر العدو
الآخر لي، وأما الارتقاء مع النور الرباني، الذي سوف يستغرقني في هذه
الظلمة العميقة، دون مكافأة.

لقد مرت أيام وليال، وأنا في هذا الكرب، وفجأة، وفي صباح أحد
الأيام الذي لم أدخل فيه أي نقاش مع ذاتي، سمعت صوتاً ساخراً ينطلق
بجانبي:

- إنك تموت.

أجبت محاولاً اغاظته:

- أنا لست بحاجة الى اذن منك، نعم أنني أموت.

قال:

- أيها الممثل، انت جد مرعوب، وكسول، أنت ترفض أن تواجه روحك
بغير الخطابة والبلاغة والصياح، إنك تموت، وهناك ستجد راحة أكبر.
فها أنت متجمد من البرد وجائع، لم ترأحداً، ولم يرك أحد. فما هي
القيمة العظيمة التي تبغي تحقيقها بلا جمهور؟ وأي ممثل أنت اذا لم يكن
لك معجبون يصفقون لك؟ لقد أصابني التعلق بك بالغثيان!

قلت:

- من أنت؟

قال:

- أنا العين الناضجة اليقظة فيك، العين التي تراقبك، وسواء أحببت أم

لم تحبب، تقدمت أم تراجع، سعت إلى هلاكك أم إلى خلاصك،
فانني أسبر معك بلا كلل أو ملل .

قلت :

- أنا لا أريدك، أنا إنسان من جلد وطين وروح، كلها في واحد، كلها في
أنا، وهي تصل إلى قلبي، وتصعد إلى جبهتي، وتحترق، العزلة لن تمنح
قلبي الهدوء، ولن يستطيع المسيح أن يحفظ روحي أكثر من ذلك . لقد
دعاني صوت قوي وأنا أتبعه ، أنا لست ممثلاً ، ولا أريد جمهوراً .

قال :

- أنا لا أسألك، انني داخلك، انني الفارس الذي يقودك، كل ما أريده
هو ألا أموت، وألا تموت، أيتها الدمية الزائلة، الدمية المخلوقة من ماء
وطين ونار وريح . كل ما أريده هو أن أخرج .

قلت : من أنت ؟

قال : انني معك منذ سنوات عديدة، أيها البائس، ولكنك لا
تعرفني .

وما أن نطق بهذه الكلمات، حتى بدأ الصوت الساخر الحزين
بالتلاشي .

* المسفن : موضع تبنى فيه السفن وترمم .

* الساروفيم : ملائكة الطبقة الأولى الذين يحرسون عرش الله في المعتقد اليهودي
القديم .

* عليكو فيلوسا: ايقوبة ترينا العذراء وهي تلبس التاج، وابنها المسيح على يده اليسرى يداعب ذقنها.

** الموزية: أحد الإلهات التسع الشقيقات اللواتي يحمين الغناء والشعر والفنون والعلوم في الميثولوجيا الاغريقية، وقد جعلها كازانتراكي الموزية العاشرة.

*** الابيلاتيكي: سلاح مرصع بالمسامير كان يستعمله الحراس الطليعيون في الامبرطوية البيزنطية.

**** البيراكوكودونا: اجراس برونزية في القيثارات الكريتية.

***** التسابراسيا: واقى للركبة من الحديد كان يستعمله الجنود البيزنطيون.

* الامازونية: امرأة من المحاربات، زعمت الأساطير الاغريقية، انهن كن يقمن قرب البحر الأسود.

** النايكي: آلهة النصر عند الاغريق، وتمثل عادة على صورة فتاة مجنحة تحمل باحدى يديها اكليلًا، وباليده الاخرى سعفة نخيل.

* القاطع الايقوني: ستار عليه ايقونات، ويحجز بين حرم المذبح وبُهرّة الكنيسة.

جامع عمر

معجزنا المسيحيين والاغريق العظيمنتين ، لمعتا في ذاكرتي واتحدنا
بتآلف سري غريب :

في الأولى ، نزل ملاك سماوي حيوي ، من السماء ، وهو يحمل في
يده زنبقة بيضاء ، ولكن هذا الملاك فتن ، وارتعش ، واستدار بكليته باتجاه
الباب الذي كان قد فتح عما قليل . وفي الثانية ، رأيت الاوزة ، تلك
المخلوقة الرائعة ، تخرج من المياه الموحلة ، وتتحول إلى أنثى ترتدي
ملابس من العصور المغرقة في القدم . وهذه المرأة ، تنحني بشكل
متهتك ، متحرر ، وبرعب على طول هذه الرقبة المتأرجحة ، وترفع راحتي
يديها نحو السماء ، كمخلوق مأزوم ، خجل ، ولكنه غير قادر ، وغير راغب
على مقاومة حيوانيته .

وفي هذا اليوم ، رأيت المعجزة الثالثة ، فلم يهبط ملاك من السماء ،
ولم يخرج حيوان من المياه الموحلة ، وإنما ، ولأول مرة على هذه
الأرض ، وبشكل انساني ، أرى رجلاً يحمل «اخباراً سارة» لامرأة .

طفت حول مسجد عمر ، وقلبي ينبض بابتهاج ، كطفل يقف جرف

صخري . فلم أمد قامتي باتجاه السماء ، لأن هذه الأرض تبدو رائعة بالنسبة لي ، وهذا البلد الذي يخصني ، قد صنع خصيصاً من أجل روحي وجسدي . وقد عدت بذاكرتي إلى يوم آخر ، كنت اتجول فيه ، متعباً ، وقلقاً ، في منطقة اربيان المحاصرة بالأكراد في قلب ارمينيا . كانت الأبواب موصدة ، والشوارع مقفرة ، والأطفال ، والنساء ييكون خلف المصاريع المغلقة ، كنت اتجول وحدي ، مليئاً بالألم والسخط . وفجأة ، وتحت شمس منتصف النهار الحارقة ، مسجداً مقدساً آخر ، يظهر بشكل غير متوقع امامي ، مغطى من اساساته وحتى قبهه ، بالخزف الصيني الأخضر والأزرق ، وبالزهور المرجانية . وفي الحال ، شعرت بالدم يهدأ في عروقي ، وبذاكرتي تنتعش ، بدا كل شيء حولي رائعاً ، وملائماً لي ، في هذا الظل البارد بعد هذه المسيرة القاسية .

وهذا ما حدث معي اليوم ، فبعد أن أيدت الأفكار المسيحية التي تدعو إلى ازدياد الأرض ، وتركها خلفنا ، وجدت مسجد عمر ، هذا ، يوفق بين قلبي وروحي ، ويغمرنني بالهدوء ، كان يتألق تحت الشمس ، ويرسل أشعته الملونة التي تبعث على الفرح والسعادة ، كطاووس ضخم .

سرت بخطى واسعة ، وبسرعة ، عبر الساحة المطلة على القدس القديمة . وظفت حول هذا المسجد المهيّب الرائع لعدة ساعات ، وكنت احاول تأخير نفسي قدر الامكان ، قبل الدخول إلى ذلك المكان البارد المعتم الذي يعتبر احدى المعجزات . وأخذت أنظر من خلال الكوى إلى المناطق المحيطة بالقدس . في البعد ، ترتفع جبال مؤاب بهدوء ، تتمايل وتومض ، ثم تختفي في غلالة نور الشمس ، وأمامي يبدو جبل الزيتون

جافاً وظامئاً، ومغطى بالغبار، وفي الأسفل تبدو المدينة متآكلة محتوتة،
بفعل أشعة الشمس الحارقة، وتبدو منازلها الجرداء، بطاقتها الصغيرة
السوداء، كالجماجم. وقد مرّت قافلة من الجمال، واحداً بعد الآخر،
تتمایل بايقاع واحد، فبدت وكأنها عصابة على الغناء، أو أنها انطلقت في
مسيرتها هذه منذ آلاف السنين.

على هذا الجبل، تخيلت يهو، وهويقف بأنفه المنتفخ يتقبل
القرايين، ويتشمم الدماء، فهنا يرتفع معبد سليمان العظيم، ذلك
الحصن الذي لا يمكن اقتحامه، للإله العنيد، آنذاك، عادت إلى
مخيلتي دمويته، وتاريخه الطافح بالحق والنعف، فتخيلت مرة أخرى،
تلك الرؤوس الصلبة التي شوتها الشمس، والأنوف الخطافية المعقوفة،
والجباه القاسية الضيقة، والرقاب الجامدة التي لا تتحرك، والعيون
الجشعة المحروقة للجنس العبري.

لكن بينما كنت اتجول خلال هذه البالوعة الدموية لاسرائيل،
استدرت، لأرى جامع عمر، يسمو أمامي تحت اشعة الشمس، مثل
نافورة منحوتة من الحجارة النادرة، ترقى إلى السماء، وتفور مياهها قليلاً
في الهواء، ثم تدور على أعقابها متراجعة، وتعود ثانية إلى الأرض. فلم
تعد لدي رغبة في مغادرة المكان.

دلفت إلى الداخل، وأنا مفتون مسحور، كانت الأحرف العربية
مجدولة كالأزهار، حروف تكرر الحكم والمواعظ القرآنية، تلتف حول
الأعمدة، كأشجار العنب المتسلقة، ثم تزهو ثانية وهي تحيط بالقبة. بهذه

الطريقة كانوا يحتضنون إلههم الرائع ، ويعانقونه بكروم العنب التي تزهر على هذه الأرض .

لقد عاد الصفاء والانتعاش إلى عيني ، وأنا أعبر العتبة حيث شعرت بالظلال الملونة لهذا الجامع ، تغمرني ، في البداية ، ولأنني كنت قد قدمت من مكان شديد الضوء ، لم يكن بإمكانني أن أميز شيئاً سوى هذا الجو العذب اللذيذ الذي يظللني ، ويريح نفسي ، لقد أحسست وكأنني أدخل حماماً منعشاً ، انعش لي جسدي ، ثم انطلق على الفور لينعش لي ذاكرتي ، فأخذت أسير وأنا انبض بالبهجة ، وارتعش امام التوقعات . وهذه هي الطريقة التي سيعبر بها المسلمون المؤمنون ظلمة ما بعد الموت إلى جنان الله الباردة ، كثواب عادل لهم .

أخذت أتقدم وأنا أمد ذراعي أمامي ، وشيئاً فشيئاً أخذت عيناوي تعتادان الجو ، وتتلاءمان معه ، حيث ظهرت النوافذ امام عيني وكأنها كوكبة من النجوم المتألثة ، وبدت القبة المرصعة بالذهب والزمرد ، تشع بالضوء الرقيق الجذاب ، وبعد ذلك أخذت التفاصيل تبين ، وتراقص خلال تلك الظلال الزرقاء ، الخطوط ، الديكورات ، والفقرات المأخوذة من القرآن ، تكمن كلها ، كأنها عيون نهمه لا ترتوي ، خلف الغصون المزهرة والمخلوقات السماوية .

وكان أحد المؤمنين ، راكعاً على حصيرة من القش ، يصلي ، وهو يولي وجهه نحو مكة ، وقد ظل لفترة من الزمن وجهته ملتصقة بالأرض ، وهو واثق ومطمئن ، كأنه طفل صغير في حضن أمه ، ثم بدأ يرفع رأسه

ببطء، إلى أن اعتدل في جلسته، وأخذ يحملق في القبة الذهبية ذات الخطوط الخضراء. كانت عيناه تتابعان بانجذاب صوفي، تلك الفقرات الخفية الغامضة لمحمد، من بين تلك السطور والتراكيب المعقدة، وقد أحسست أن هذا الرجل غارق حلم سحري، يطارد ظيماً جميلاً، وكم كانت غبطته شديدة، حين استطاع أخيراً، أن يدرك أن كل هذه السطور الصغيرة المجدولة حول بعضها البعض، لم تكن مجرد لعبة فانتازية تافهة، وإنما هي أسطر من وصايا النبي السامية.

المؤمن وحده، هو الذي يستطيع أن يميز وأن يوائم بين هذه الأشكال الصعبة غير المنسجمة، ويوحد بين الرسالة العظيمة والمعاني الروحية في قلبه، إنه لا يزدري الأشياء الظاهرة، ولا يبحث عن الجوهر خلف الدلالات الواضحة، ولا يقيد نفسه بهذا العالم المرئي والملموس، دون أن يتوق إلى ما هو أكثر من ذلك، الفكرة الرئيسية هنا، هي، من الذي خلق الروح، فكل هذه الحياة: الماء، الخبز، المرأة، الجبال، الحيوانات، ما هي إلا زينة الحياة الدنيا، وهي مجرد متعة للقلب الذي يستطيع أن يوائم بينها، كي يستطيع الوصول إلى ادراك المعنى الحقيقي للأشياء.

من وصايا المسيح: ترفعوا عن هذه الدنيا، وعن ثرواتها، فخلف هذه الظواهر يكمن الجوهر، وخلف هذه الحياة الزائلة يكمن الخلود.

وابوللو الذي يقف ثابتاً فوق نصبه المرمري يوصينا: كيف قلبك مع الدنيا، وتمتع بهدوء مع هذه الأشياء الزائلة، فالنظام المجرد للأشياء

يقول: خارج هذا التوافق الذي يصنعه فكرك، لا شيء سوى الهولي .
أما بوذا، بنظرته الافعوانية الشيطانية المغربية، فإنه ينظر إلينا بابتسام،
واصبغه في فمه، ويقودنا نحو الهولي .

أما اليوم، داخل جامع عمر، فإنني أريد أن أسيطر على القلق في
قلبي، وإن اناضل من أجل الوصول إلى حالة التوازن، لما أحبه بعمق في
هذا العالم، أريد عقلاً متزناً واقعياً، وخيالاً ملتهباً، وحساباً دقيقاً، ومبادرة
طليعية، وفي الوقت نفسه، ألا تكون هذه الأشياء خارج التوق الروحي،
بل داخله، وأخذت أحملق في قبة المسجد لساعات، كالإنسان
المؤمن، فرأيت كيف احوالت الحيل العربية، الحيوانات والنباتات إلى
ديكورات واحالت الديكورات إلى حروف تتجمع كلها، فتكشف عن
وجود الله، كي نراه أمامنا، كأمر يختفي خلف أوراق اشجار حديقته .

جلست في إحدى زوايا المسجد، فلاحت امام ذاكرتي الاطلاع
الصلبة الجامدة لمعبد «بارثينون»^(١) تماماً كما لاح وجه بياتريس السماوي
الطاهر، في ذاكرة دانتى، وهو يلقي بنفسه باستسلام إلى حضن الأرض
الدافئ .

إنني أدرك أنني قد قمت بدورك في حفظ التوازن وفي الصبر، وفي
ترويض الايقاع، وجلوه بأبهى صورة داخلي، لقد رسمت الحدود
لرغباتي، ووضعت الحواجز حول الطاقات المتفجرة لشبابي، لقد وجدت
الكلمات المعبرة بدقة لوصاياك التي تشبه الأوامر التي تعطى للرياضي
الماهر، من أجل أن يقوم بفتح الطريق أمامي، في البداية لُحْتُ أمامي

كاجار نظري جامد، ولم يكن قلبي يرغب ان يتبعك، لكن شيئاً فشيئاً،
ومضل الوقت والحب، تجليت لي كسمة رقيقة تسير في مجراها
المستقيم، وكهوى عميق يبيض بالقوة الحفيفية التي تشد نفسها باحزمة
القوة والعافية، ونسب كالْموسيقى السحرية، وشيئاً فشيئاً، بدأت أدرك،
وأنت نهض امامي يا «بارثيوس» إن هذا الهدوء والصحو، ما هو إلا خميرة
هذه العواصف كلها، وأن المهمة العليا للإنسان، هي أن يتابع بايمان
واحلاص، بضالته الذي لم يتشكل بعد، مع القضايا، من أجل تحريرها،
وذلك بالحق هذه القضايا بالصيغة الانسانية المجردة.

ولأول مرة على هذه الأرض، أرى فوضى القلب، وهي تتبع هذا
الشرف، دون أن تعن عن ثرائها، لاطلال الذاكرة الجامدة، الذاكرة
المظفرة التي تجمع هذه الفوضى اللامتناهية، داخل هذه الجمجمة
الصحيرية، وتشكل لها حدود مملكتها التي تحكمها تماماً، كما يجد
الإنسان بين هذه الفوضى القانون الذي يحكم الظواهر، ويحيطها بدقة
بالكلمات، ليصبح العالم هادئاً، ولتنظم هذه القوى المتضادة كما تنظم
فوضى القوى الطبيعية. هكذا لاح «بارثيوس» امامي، راسخاً وقادراً على
تنظيم هذه الفوضى.

نكن اليوم، وأنا استعيد هذا النصر للمنطق والنظم والبنى، أحمر
بانغيظ يحاصر روحي، فقلبي لم يعد نقياً، وعقلي حطم التوازن القديم،
واليوم، أي توازن يستطيع أن يكبح القوى الثائرة، التي تبدو غريبة علي،
خلال هذا الصفاء السماوي، الذي أكاد أحس أنه محصور ومزيف، ولا

أستطيع أن أدركه أو أفهمه . لقد ولدت علاقات جديدة، وهبت شياطين الأرض، وأياديتها مملوءة بالهدايا الخطرة، وشفاها ترتعش عليها الابتسامات الغامضة الخادعة المعقدة، لقد تحطمت خوذة أثينا، ولم تعد لديها القدرة على حماية رأس العالم .

لقد احسست بدوافع لا تقاوم، تحفزني للحفر تحت اساسات هذا المسجد الرائع، لأنني أعرف أن هذا المكان الرخامي الجميل، قد اقام اساساته على كريتيادات اثوية^(٢) ذوات صدور مثيرة بارزة، وشفاه مطلية، وعيون سوداء خطيرة .

لقد كنت احاول بصعوبة باللغة توضيح دوافعي، فالكريتيادات المعاصرة التي تزلزل ارواحنا، لا تمتلك تلك الطلعة الساحرة التي كانت تتميز بها النسوة القديمات، انها تشبه الآهات القضاء والقدر^(٣)، فاحداهن تدعى الجوع، وهي تسير ويتبعها رجال لا حصر لهم، بحيث لم يكن لافروديث نفس هذا العدد من العشاق الذين يتبعون هذه الامازونية الشاحبة التي لا تقهر، ذات الصدر المفلطح والوجه الذي لا يعرف الابتسام، اما الأخريات فيدعين باسماء عدة مثل: الثأر، الثورة، والحرية .

أي «بارثيون»، وأي مسجد سوف يقام على هذه الكريتيادات؟ لقد جلست في هذه الزاوية الباردة للمسجد، وأنا ادرك أن لحظات الغبطة كلها قد فرّت مني، لقد اصبحت الحياة شديدة الوطأة، فاليوم لا نشعر بالقناعة في كل لحظة تمر، لا يكفيننا فرحها، ولا حزنها . . لذلك فإننا

نلقيا خلف ظهورنا، ونتعجل مجيء اللحظة المقبلة .

في عصر آخر، سيكون الانسان سعيداً بالتأكيد، وهو يحافظ على بقائه في المناخ البائس لبارثنيون، أو سيكون سعيداً بالتربع والتسبيح، في هذا المسجد البهيج، مسجد عمر، الذي ينبض بالايمان والروائح الزكية، فالقلب هذه الأيام، ينبض بتسارع رهيب، تسارع لا يمكن الاحاطة به، إنه يصارع من أجل ايجاد الفروق، بل أكثر من ذلك، يصارع من أجل الايهام في بناء معبد المستقبل للإله الهائج الثائر الذي لم تتضح ملامحه بعد^(٤).

(١) البارثنيون: معبد يوناني على الاكروبوليس في أثينا، بني في القرن الخامس قبل الميلاد.

(٢) الكريتيد: تمثال امرأة يقوم مقام عمود في مبنى .

(٣) إلهات القضاء والقدر: ثلاث إلهات عند الاغريق يتولين تصريف القضاء والقدر! .

(٤) يقصد بذلك اعادة بناء الهيكل على اطلال مسجد عمر، لذلك نراه يصور ذلك بسخرية مرة .

بکاء العبریین

كنت على عجلة من أمري وأنا اشق طريقي عبر شوارع القدس
المعتمدة المسقوفة . كان وميض عيون العبريين يومي بالتهكم ، والقلق ،
والتشهي ، والحسد . أما المسلمون فقد كانوا هادئين ، مؤمنين بعمق
وقناعة برعاية الله ، وهم يرمقونك بنظرات لا ابالية محايدة ، وأنت تمر
بالقرب منهم .

كنت أحاول المرور بسرعة خلال هذا الحشد البشري الحائر ، وأنا
مفتون بسحر الألوان ، والعطور ، وضجيج أولئك الأناضوليين* القدرين
الرائعين . كنت تواقاً للوصول إلى حائط معبد سليمان ، ذلك الحائط الذي
مرّ عليه أكثر من ثمانية عشر قرناً حتى الآن . كان اليهود يندبون بلدهم
المفقود ، ويدعون الإله «يهوه» للنزول ثانية ، كي يعيد الألق إلى معبده .

كانت الشمس على وشك الغروب ، وأنا أعبر تلك الشوارع القذرة
الضيقة . وكان اللون القرمزي يغمر مداخل الشوارع المعقودة وأعمدتها ،
كأنه جدول من الدم ينبع من عين الشمس الغاربة . الظلام والوجوه
العربية النحيلة التي لها بريق معدني ، وللحظة ، كان ذلك المشهد ،

ينعكس حتى على وجنات اليهود الشاحبة، التي اكتسبت لوناً وردياً غضاً .
عندما انعطفت نحو المنعطف، لاحظت حاخامين هرمين، يندفعان
بسرعة باتجاهي، كانا يرتديان معطفين باذخين يثيران الاستهجان .
احدهما اصفر اللون مشوب بلون قرمزي متفجر، والثاني أخضر فاقع
الخضرة . وقد كان هذان الحاخامان الكبيران، ضوئاً، لمع فجأة، كما
تلمع النجوم فوق الشوارع القذرة، القليلة الاضاءة، في الحي العبري .
وكان علي أن أتبع هذين الحاخامين، لأنني حدثت بأنهما قد لبسا تلك
الملابس الباذخة، كي يقفا في حضرة إلههما، في تلك الخرائب
القديمة، وينخرطا في بكائهما .

سرنا نزولاً خلال تلك الشوارع المرصوفة الزلقة، وفجأة سمعت بكاء
ايقاعياً مرئياً، بأصوات رجالية، فوقفت مسحوراً . كانت تلك الأصوات
النادبة الحزينة بالغة الروعة بالنسبة لي، ناعمة، ومثابرة، كمطر الربيع،
أصوات تختلط فيها الدموع والضحكات . سرت خطوات لأجد نفسي أمام
ذلك الحائط الذي أعيد تجديده . والذي يشكل الأثر الوحيد الباقي من
معبد سليمان . وهو حائط عادي جداً، ذو حجارة ضخمة مرصوفة فوق
بعضها بعضاً دون حشوات اسمنتية بينها . الحجارة العالية مغطاة
بالطحالب، التي تتدلى على الحجارة الواقعة اسفل منها . اما الحجارة
التي تقع في متناول أيدي الناس، والتي تصل إليها أيديهم، فقد نظفت
نتيجة للمسحات، وقبلات، وعناق اليهود .

حوالي خمسين متعبداً، كانوا يحملون العهد القديم في أيديهم،

ويستندون إلى الجدار، وهم ينوحون ويعولون، واحد الحاخامات، بلحية خشنة، يرتدي حلة حريرية سوداء، وقبعة من الفرو الثقيل، يردد اللحن، بايقاع رتيب، كأنه يتحدث من أنفه، وكان هناك شاب يقف خلفه مباشرة، يصرخ. وشاب آخر، يرتدي سترة طويلة سوداء، ضاربة إلى الخضرة، وقبعة ثقيلة، ذولحية ضاربة إلى الصفرة. وقد سحب ذلك الشاب عن زناره حبلًا من الشعر، كان يربطه حول خصره فوق سترته. ثم أخذ يهتز متأرجحاً إلى الأمام، وإلى الخلف، في حين وقف رجل عجوز يبكي بصمت، ويحشر وجهه في شق في الجدار.

لقد استمروا بالتوافد، وبتقبيل الجدران، وتمريغ وجوههم بالحجارة، واطلاق التنهيدات العميقة، حيث تقدم إلى المكان قزم محدودب الظهر، يعتمر طربوشاً أحمر، وعمامة سوداء، ولحية سوداء كذيل الغراب، وأخذ يهتز اماماً وخلفاً، بايقاع معين، وبأس وقنوط. كذلك فقد احتشد حاخامات بعباءات برتقالية، وحاخامات آخرون بعباءات زرقاء، وبيضاء، وبنفسجية، كأنهم ممثلون عريقون قدماء. يتحلقون كالعناقيد، ويشرعون في بكائهم الرنان. وكان هناك طفلان في الثامنة أو العاشرة من العمر، انخرطا في كرنفال النواح، حينما قاما بتقبيل الجزء السفلي من الحائط، أما القزم فقد قربهما إليه، وانخرط هو الآخر في النواح.

أما النسوة فقد كن يقفن في زاوية في الجهة اليسرى، حيث كانت تقف فتاة ذات شعر أسود فاحم، أجعد، وشال أصفر باطراف طويلة

مدلّاة، وشفاة مطلية بأحمر الشفأة.

كانت تتكىء على الحائط، وترسل نظرات جانبية من عينيها، وتبتسم من فعل الرجال، كانت عيناها ما تزالان حمراوين من البكاء، ولكنها بعد أن ارتاحت من ذلك الطقس البكائي استسلمت لطيش الشباب الذي استحوذ عليها في تلك اللحظة، فتناست اللعنة السماوية التي ستنزل بها، والهيكल المدمر، والقتلى من أبناء جنسها، وأخذت تنظر إلى أولئك الرجال نظرات شهوانية جائعة. كانت تدرك أن لا شيء سوى الحب، يمتلك القدرة على حماية جيلها، ويزيد من تكاثر اليهود، ويعيد بناء هيكل سليمان.

لكن الرجال المتقدمين في السن، والنساء، كانت يندبون وينوحون، وقد عشت تلك اللحظات الغريبة، بكل إثارتها التي لا توصف. أحد الرجال العجائز، كان يراود نفسه للابتعاد عن ذلك الحائط، لكنه كان اعجز من احتمال لحظة الفراق تلك، فعاد وألقى بنفسه على الحائط.

لقد اجتمع اليهود في هذا المكان الذي جاءوا إليه من جهات الأرض الأربع، جاءوا ليغرقوا جميعاً في هذا الطقس البكائي الغريب، جاءوا من غاليتسيا، بسترهم الطويلة، وشعورهم التي تهدل على الصدغ، ومن الجزيرة العربية بجلابيبهم البيضاء، ومن بولندا بشعورهم الحمراء القصيرة، ومن بابل بكل جلالهم، ومهابتهم تلك المهابة التي يتصف بها الآباء التوراتيون. وجاءوا من روسيا واسبانيا، واليونان، والجزائر.

أما ذلك الرجل ذي الملامح الصينية، بشاربيه الخفيفين، فقد جلس القرفصاء وأخذ يحرك رأسه، ونصفه العلوي بايقاع بطيء، وبدأ يرسل تراتيله بلا توقف، كطفل صغير انهكه البكاء.

كانت لعنة الألم المرتعب، تتساقط على تلك الرؤوس، «سوف أدمرهم، وسوف أسلمهم إلى الخرائب والأطلال، والنواح، والسخرية، سوف انزع عنهم صوت المتعة، وصوت السعادة، وصوت العريس وصوت العروس ورائحة المر، وضوء المصباح».

كانوا مبعثرين في كل بقاع الأرض، في غيتوهات اليهود المظلمة، وفي العصور الوسطى، كانت الجدران العالية تفصلهم عن بقية المدينة، وكانت الأبواب تفتح في الصباح، وتغلق في الليل، وكانوا يرتدون لباس الخزي، فقد كانوا يرتدون أشرطة قماشية حمراء أو صفراء على أكتافهم أو صدورهم، أورو وسهم. وفي شمال فرنسا في العصور الوسطى كانوا يرتدون قبعات صفراء، كانوا يرتدون كبوداً أو قبة حمراء أو خضراء، وقد كان عليهم أن يفعلوا ذلك حتى يتمكن معذبوهم من تمييزهم من أجل إساءة معاملتهم أو مهاجمتهم، دون يعاقبوا على ذلك. وعندما كان عليهم أن يسوقوهم إلى المحرقة، كانوا يلبسونهم الحلل السوداء الحزينة بالصلبان، ولهب جهنم، والشياطين، ويتركونهم يسرون بين الجماهير المحتشدة التي ترتل اللعنات على رؤوسهم.

وفي مخاض حياة العار هذه، وفي حمى الموت والاستشهاد، كان هذا الحائط المتآكل بفعل قبلاتهم، يومض أمام عيونهم، كأنه الملجأ

البرونزي العالي . كان يومض في مدارج روسيا المغطاة بالثلج ، وفي سهول اسبانيا المشمسة . وكان صهيون «قمة الفضيلة» يسموفي صرخاتهم وبكائهم ، كأنه قوس قزح رباني ، فبعد ثمانية عشر قرناً ، هاهم الآن ينوحون ، ووجوههم تتجه نحو هذا الحائط ، ويدعون ربهم :

«إلهنا، إلهنا، ازح عنا كرنا، لقد اغتصب الآخرون ارثنا، واحتل الغرباء بيوتنا، وأصبح علينا أن نشترى الماء الذي نشرب ، والحطب الذي نوقد به نيراننا، لقد غادرت البهجة قلوبنا، وتحولت رقصتنا إلى نحيب وتنهدات ، لقد سقط التاج عن رؤوسنا» .

هكذا كان يندب العبريون قرونهم العديدة الماضية ، باحثين عن ، ومعانقين ، ومقبلين حجارة اسلافهم . لقد اقتلعوا ، وهاموا في الأرض ، ولم يبق موسى ذلك القائد العظيم ، معهم طويلاً ، كي يشرع لهم ويوجههم ، وإنما تمزقوا ، وتشتتوا ، وأصبحوا بلا وطن ، فلا عزاء لليهود التائهين .

وبعد قرون عديدة ، هاهم الآن يرسلون ممثليهم : الفقراء ، والمسين ، الذين سخرت منهم شعوب الأرض ، إلى هذا الحائط ، حتى يستطيع «يهوه» أن يرى الهوة السحيقة التي سقط فيها شعبه المختار ، وليدرك ذلك الإله ، إنه قد حان الوقت كي يتذكرو ويحفظ كلماته . ألم يعدهم بأنه سيورثهم الأرض كلها؟ ، ألم يحتفظوا بايمانهم آلاف السنوات؟ ألم يلحق بهم الخزي والعار؟ ، ألم يقتلوا ويستشهدوا من أجل مشيئته؟ ، كم يجب عليهم إذاً أن ينتظروا؟ إنهم يسألون الرسل ،

ويصرخون من أجل حقوقهم . انهم المرابين الذين رهنوا دموعهم وحبهم من أجل الفائدة، وكان الله هو المديون . ولكن المرابين العبريين يلحون بالطلب، وباستمرار، بدموعهم وبسخطهم، كي يعيد إليهم دينهم .

الروح اليهودية تريد أن تقهر الأرض . تريد أن تجعل كل الشعوب تابعة لايقاعها . وتريد سحق الواقع المعاصر، لأن الأرض لا تستطيع أن تحتمله، هذه هي خاصيتهم المميزة العميقة .

كان الاغريقيون يحبون بناء نسق موازن نسق القوة، وفرحوا به ، لذلك استطاعوا الانسجام والتوافق مع كل لحظة تمر . لقد أوجدوا التوازن في هذا العالم ، ولكن اليهود يحاربون بلا انقطاع من أجل تحطيم هذا التوازن، وهز قلب الانسان، لذلك فإن الواقع غير قادر على احتوائهم واحتمالهم . ووراء كل دقيقة زائلة يطالبون بالمطلق .

* لأن صوبيون . هم الأتراك الذين كانوا يحكمون فلسطين في تلك الفترة

أرض الميعاد

غربت الشمس تماماً، والتمعت نجمتا افروديت وعشتار كقنديلين معلقين فوق جبال «يهودا» المعتمة الزرقاء، واغلق الحاخامات كتبهم بعد أن توصلوا إلى السلام مع أنفسهم، وأخذت أيديهم الهرمة المتشنجة تعانق الجدار ببطء، وهم ينسحبون من المكان. كانوا يتصورون أن المعبد قد أعيد بناؤه، وأن صهيون قد نهض، بصورة جديدة كلياً، وأن المسيح قد دخل مرة أخرى من باب داود الحصين، أجل، دخل كما تصوره الأساطير الموروثة: «على حماره الأبيض».

كان بصحبتني صديق عبري، كان من المغامرين الملحدين الجدد، المؤثرين والمنطقيين، استدار الصديق نحوي، وأرسل إيماءة ساخرة، وقال:

- «يعتقدون أن صرخاتهم التي يطلقونها في الهواء قادرة على إعادة بناء القدس، في حين أن الانتاج الضخم، وتوزيع الثروات، هما وحدهما القادران على خلق الجنس البشري الفعال، وبناء القدس الجديدة».

أجبتة:

- «يا رفيق، هذه الأصوات التي تسخر منها، كانت دائماً البشائر التي زرعت البذور في الهواء، فبعد ألف أو ألفين من السنوات، جئتم أنتم أيها السيكلوجيون، والليبراليون، والمنطقيون، كي تحصّدوا ثمارها. إن الإعداد الروحي للواقعية، يتم دائماً بهذه الطريقة. إن غصص القلب التي تصرخ، في محاولة منها للانطلاق، تتحول إلى أصوات وعواصف، تعصف بهذا الجو، وتجذب قلوباً أخرى، وتدخل إلى العقول، والأيدي، والقوى الفاعلة، لتعبئ تلك القوى المرئية وغير المرئية. هذه هي الطريقة الوحيدة، التي تصبح فيها الكلمة جسداً يسير على الأرض».

- «وإلى ماذا تحتاج كي تتحول إلى جسد؟».

- «لا تحتاج إلا لهذا فقط: أن تترك بكاءها يتصاعد في الجو، لسنوات عديدة».

لقد سمعت تلك الصرخة «المصدر» خلال الأسابيع العديدة التي تجولت فيها عبر «يهودا»، لقد اكتوت عيناى وأنا أنظر إلى تلك الصحراء المتبخرة من القدس حتى نهر الأردن، والبحر الميت، تلك البقعة التي تنخفض اربعمئة متر عن سطح البحر الأبيض المتوسط. لم أر زهرة واحدة تنمو، ولا قطرة ماء تتصاعد من تلك الأرض الجافة، كانت الجبال موحشة صارمة، وصعبة المنال، كانت نموذجاً رائعاً للفنان الذي يعشق الجمال المتقشف التراجيدي في هذا العالم، ونموذجاً رائعاً للخشب الذي يتوالد داخل الأنبياء الذين يريدون العيش داخل عزلتهم، لكنه للناس البسطاء العاديين، الذين يريدون أن يبنوا بيوتاً، ويزرعوا اشجاراً، وينجبوا أطفالاً، فإن هذه البرية الموحشة القاسية لا تحتمل ابداً.

وميض شعاع لازوردي، يداعب ذاكرتك بوله غريب وأنت تعبر هذه
الجبال الرمادية المهجورة المقفرة، تلك الجبال التي لا ترى فيها طيراً أو
ورقة خضراء، ولا تسمع إلا صوت نعيب غراب جائع، غير متوقع، يحلق
فوق رأسك، أو عواء ثعالب تقترب منك اثناء الليل، باحثة عن طعامها في
الرمال.

وفجأة، ترى اريحا تبتسم لك، كواحة معزولة، وتجدد نفسك أمام
بساتين الرمان المزهرة، وأشجار الموز، والتين، والتوت، وكلها محاطة
بسياج من أشجار النخيل الطويلة الرشيقة، وتستمتع بالأشعة الايونية
الخلافة، وينابيع المياه المتفجرة، فترتاح عينك، ويشعر جسمك بالراحة
والتجدد، ولكن هذه الواحة سرعان ما تختفي، وتبتلعها الرمال!

نفس ذلك المنظر البهيج يقابلك في حيفا، فترى بساتين الرمان
المزهرة والمتجددة، وبساتين أشجار البرتقال والليمون، وفي الجنوب،
في مدينة ابراهيم الخليل القديمة، تحس بألفة وطمأنينة الأرض وهي
تستقبل محراث الانسان.

في السامرة والجليل، تبدو الجبال أكثر وداً وألفة في مظهرها العام،
حيث ترى الطيور، والمياه، والأشجار، تعطي للطبيعة أنسها وألفتها،
ولكن امراض الحمى تقتل الناس. «حتى الطيور التي تحلق فوق
الرؤوس يدركها الموت».

كما يقول المثل العربي القديم.

في العصور التوراتية كانت فلسطين تفيض بأنهار اللبن والعسل

وكانت قطوف العنب ثقيلة جداً، لدرجة أن القطف الواحد كان بحاجة إلى رجلين لحمله. أما الآن، فإن المظهر الفلسطيني غير ظاهر، فقد جلب العرب صحراءهم الموروثة معهم.

لكن نفساً جديداً يتبلور، فالروح اليهودية القديمة تهب مرة أخرى فوق سهول وأودية فلسطين المقفرة. لقد عاد اليهود، ليحرثوا الأرض، ويشقوا أقنية الماء، ويزرعوا، وينبوا، إنهم يحاربون بطريقة نبيلة، يستثمرون الأرض، كي يتمكنوا من التغلب عليها وقهرها. إنهم يحاربون كي يعيدوا النور، والمتعة، والبهجة إلى بلادهم المتروكة والمهجورة.

حاخام يهودي من أصحاب الشركات العقارية الجديدة، كان يتحدث لي ويقول:

- «كل انسان يحمل على عاتقه مهمة حقيقية تتعلق بالأشياء التي يجب عليه أن يحررها: عليه أن يحرر حيواناته، أرضه، أدوات تجارته، جسده، وعقله. إن عليه واجب تحرير كل هذه الأشياء. لكن كيف؟، عن طريق استعمالها. وتهذيبها، وتطويرها، فإذا لم يستطع تحريرها، فلن يكون بإمكانه تحرير نفسه، كذلك فإن لكل شعب مهمة رئيسة تتعلق بالأرض، والموروثات، والأفكار، وهذه الأشياء يجب أن تتحرر. فإذا أرادت أن تتحرر، فيجب أن يمتلك الشعب اليهودي فلسطين».

سرنّا في طريق مترب عريض، محاذ لوادي شعفاط الواقع على سفوح جبل الزيتون، كانت شواهد أضرحا اليهود، المدفونة بعمق في الأرض، تستحم بوهج شمس الظهيرة، في حين كانت قرية «الياسمينة»

الصغيرة، التي تقع على بعد خطوات قليلة من المكان، تغرق في الظلام. بينما وهيج الشمس يعشي العيون. وفجأة، رأينا جملين يتقدما ويسط القبور، يتبع أحدهما الآخر، كانت رقبتاهما تتمايلان ببطء، وحين جدقت عيونهما السود الصبورة من تحت الرموش الطويلة، فينا برقة، برق قلبي، وأحسست أنني أعيش حياة حارة، في حضرة كائنات حية، تتحرك في هذه البرية القاسية.

بجانبني، كانت فتاة يهودية شابة، تسير، وتتنفس بسهولة، كانت تعمل معلمة، وتدعى «جوديت»، وقد جاءت لتريني حديقة للأطفال اليهود، كانت في حوالي العشرين من العمر، قصيرة، رشيقة، ذات أنف معقوف، وعينين سوداوين فاحمتين حائرتين، وشعر خشن أجعد، وذقن عريض، يومىء بالعناد والعزم.

سألتها:

«ماذا حصل كي تصبحي صهيونية؟»

قالت:

«كنت أدرس الطب، ولم تكن لدي أية انتماءات لأي دين أو بلد. وكان الناس دائماً يثيرون اهتمامي، وكنت أشعر بالرفقة والشفقة تجاه الجنس البشري كله، مدركة كيف يمكن أن يتقاسم الجميع المعاناة والمتعة، والحزن. لكنني كنت قلقة حائرة. فقد كانت أوروبا كلها، تبذولي قد-يمة، مألوفة، ومبتذلة. كنت متعطشة لشيء جديد. ولهذا فقد جئت إلى فلسطين».

قلت :

- «لِمَ لَمْ تذهبي إلى روسيا، يقولون أن عالما جديدا يتشكل هناك؟» .

قالت :

- «لأنه لا توجد حرية هناك . مجموعة فظة قاسية . تحكم الآخرين ، كل الآخرين . والحقيقة أن مجموعة البروليتاريين هذه لم تكن تريحي مطلقا . كنت أريد الحرية» .

قلت :

- «وهل وجدتها هنا ، في فلسطين؟» .

قالت : هنا نعمل بشكل حر ، نحاول ، نجرب ، وبحث من أجل ايجاد شيء ما ، هنا تستطيع أن تجد شعبا تعمل معه . ضيف لسراجك الشخصي ، هنا تجد الثوريين المتطرفين في ثورتهم والمحافظة الموغليين في تقليديتهم ، هنا تجد الحرية . ندمرة الأولى أشعراسي حيه وقوية وقادرة على حب الأرض التي لم التفت إليها أبدا وأنا في اوروب وقادرة على الاحساس بالغبطة لأنني أنتمي للجنس اليهودي .

قلت : بعبارة أخرى ، لقد بدأت بفقد حريتك ، لقد بدأت بتقييد نفسك وشدها إلى ركن معين من الأرض ، وبدأت بتضييق مساحة قلبك ، فبعد أن كان فيه متسع لكل العالم ، أصبح الآن ، يميز ، ويفرق ، ويختار ، ولا يتقبل سوى اليهود . ألا تشعرين بالخطر؟ .

احتجّت الفتاة اليهودية بغضب ، يشوبه بعض الخوف وقالت :

- أي خطر؟ .

قلت: أي خطر؟!، أنا أقول لك: لقد منع زعيم الفجر شعبه من بناء البيوت، أو زرع الأشجار، أو وضع الأسوار والأسيجة، لذلك فإنهم ينصبون خيامهم على الأرض لفترة قصيرة من الزمن، ومن ثم فإنهم يمتلكون حرية الحركة، وذات يوم، بينما كانوا يهدون خيامهم، انحنت فتاة شابة على الأرض، وتلكأت، وحين اقترب الزعيم منها، وجد أن الفتاة قد عصت أمره، وزرعت غصناً من الرياح على مدخل خيمتها، وأن هذا الغصن قد أزهَرَ . لذلك، فقد انحنت الفتاة الشابة عليه، وأخذت تبكي، ولم تعد قادرة على فراقه . فتقدم الزعيم وهو في قمة غضبه، فاقتلع الغصن، وأخذ يدوسه بقدمه، ثم هوى على الفتاة بسوطه، وهو يصرخ: لماذا عصيت أمري، ألا تعرفين أن من يبني بيتاً سوف يرتبط بالبيت الذي بناه، وأن من يزرع شجرة سوف يقيد بتلك الشجرة؟! .

صرخت الفتاة اليهودية قائلة:

- نحن لا نريد أن نظل اليهود الرحل، أكثر من ذلك .

قلت: هذا هو الخطر الذي اتحدث عنه، أنتم لا تريدون التقدم أكثر من ذلك . إذا كان الهدف من الحياة هو السعادة - أن تأكلوا جيداً، وتناموا

بأمان، وتعيشوا بسلام - فهذا ليس سوى مجرد تبرير، بأنكم تريدون أن تهربوا من الاضطهاد والاحتقار، وأنكم تريدون أن تمدوا جذوركم أخيراً في أرض بلادكم . ومع هذا، فأنا لست مع هذا الطرح، وذلك لاعتقادي - وأشكر الله على ذلك - أنكم لن تجدوا السعادة والأمن هنا في فلسطين .

لكن ، إذا كان الهدف من الحياة ، وهدف الشعب بشكل خاص ، أصعب من ذلك بكثير ، وهو أن يناضل من أجل أحداث أقصى ما يستطيع من تغيير في سلوكه ، وتفكيره ، وقيمته الجمالية ، وأن يسمو على عذابه ، عندها ، وبلا جدال ، تكون الحركة الصهيونية منافية ومناقضة للمصالح العليا لجنسكم اليهودي .

قالت : لم لم يأخذ الانجليز والفرنسيون ، واليونانيون مثل هذا الدور من الترحال إذاً؟ أم أنك تعتقد أن اسهاماتهم بمجملها قد تضاءلت لأنه أصبحت لهم بلاد؟ .

قلت : لكل شعب مناقبه الخاصة ، وعيوبه الخاصة ، وبالتالي فإن له طريقه الخاصة للوصول إلى ذروته ، واليهود يمتلكون هذه الخاصية العظمى : ألا يرتاحوا ، ألا يتوافقوا مع حقيقة الزمن ، أن يناضلوا من أجل الهروب ، أن يعتبروا كل تمثال سجاناً ، وكل فكرة سجيناً خانقاً . وبهذه الخاصية الحادة التي يتمتعون بها ، صانوا الجنس البشري من المساعي المدبرة للقناعة وراحة البال . ما أريد قوله هنا ، أنه من خلال هذا الوضع الذي لا خلاص منه ، استطاعت الروح اليهودية أن تحطم التوازن ، وأن تدفع نحو التكامل والارتقاء وأن تثير عناصر الكبرياء والفخر في الحياة ، وهذه الروح لا تقنع ، ولا تعرف التوقف ، إنها تثب من النباتات إلى الحيوانات ، ومن الحيوانات إلى الانسان ، ثم تعذب الانسان وتلوعه ، وكأنها تريد أن تفجره لتصل إلى ما هو أبعد من ذلك .

قالت : أبأؤنا في أرض كنعان ، كانوا مزارعين ، تجذروا في أرضهم ،

وأبدعوا حضارتهم .

قلت :

تلك كانت طبيعة جسكم إذاً ، لم يحمل اليهود خاصية فعل الثورة بشكل دائم ، وإنما اكتسبوها ، فالاضطهاد والقتل ، والظلم ، والنفي ، كل هذه الأشياء التي تطلقون عليها الشتات (دياسبورا) ألزمت الجنس العبري منذ ألفي عام ، وشكلته وكونته عكس ارادته ، وبالقوة ، في خميرة الأرض .

قالت :

- بالقوة؟! .

قلت :

- هل ازعجتك هذه الكلمة ، أليس صحيحاً أن القوة هي أعظم قانون سري للتاريخ ، الكثير من الأجناس فضلت أن تهرب من دمويتها ، وقدرها الجليل ، كي تعيش حياتها السرية بسرور وسعادة ، لكن الحاجات الضرورات الاقتصادية ، والحروب ، وبعض الأنبياء الذين ولدوا بين ظهرانيكم ، لم يتركوكم وشأنكم ، وإنما عن طريق القوة ، والقهر ، حفزوكم للنهوض .

بهذه الطريقة تشتتت في اصقاع الأرض لقرون عديدة ، وقد عانى اليهود وذاقوا الرعب والقتل ، وقد ترك هذا الأمر ، صبغته التي لا تمحى على نفسياتهم ، وخلق فيهم الكره والحقد على كل ظلم وجبروت ، سواء جاء هذا الأمر من الأفراد ، أو الأنظمة ، أو حتى الأفكار ، ولهذا فهم جماعات مرعوبة جزعة . هذا هو قدرهم ، وبدونهم يفسد العالم ويتعس .

- شكراً لك ، لهذا الدور الذي رسمته لنا ، وعلي أن أقر وأعترف أننا نشعر بالشرف العظيم لكوننا ضحايا القتل والقلق وعدم الاستقرار الذي لا ينتهي ، وكوننا نجعل الآخرين قلقين ، لكننا لا نريد أن نلعب هذا الدور أكثر من ذلك .

قلت :

- لقد تعبتم إذاً؟ ، لكن الحتمية التاريخية التي تسير الأجناس لن تتوقف لتسألکم ، إنها تدفعکم بلا هوادة ، شتم ذلك أم أبيتم . وهذه الحركة الصهيونية الحديثة ، أيضاً ، ليست سوى قناع يلبسه قدرکم المتجهم ليخدعکم إلى ما لا نهاية . ولهذا السبب فأنا لا أخاف الصهيونية : كيف يستطيع خمسة عشر مليوناً من اليهود أن يحشروا أنفسهم هنا؟ . لن تجدوا الأمن هنا ، فخلفکم - وهذا هو الذي يجب ألا تنسوه أبداً - جموع من العرب السمر الأشداء المتحمسين .

ولهذا - شتم أم أبيتم - ستصبحون أدوات الروح لعصرنا هذا ، "عصرنا هو عصر الثورة ، ولهذا سيكون عصر اليهود ، كما قال أحدهم ذات مرة : « في الثاني والعشرين من آذار عام ١٨٣٢ ، حين مات جوتة ، انتهت حقبة تاريخية ، وبدأت حقبة جديدة ، حقبة حكم اليهود » . وهذا صحيح ، فقد كان جوتة آخر ممثل حقيقي للتوازن في عصره ، بعد جوتة ، كانت البداية الحقيقية لعصرنا الراهن ، وسيكون العنف هو العنصر الثمين على حد سواء ، من أجل تفجير التوازن القديم ، وخلق التوازن الجديد .

وهذا هو سبب انتشار الجنس اليهودي في هذه الأيام ، لأنه المادة

الجمهورية التي لا غنى عنها من أجل تفجير أي توازن، وهذا هو السبب الذي جعل المثقفين الذين يحتلون المراكز العليا ويقودون صناعات القرار في العالم، من اليهود، لماذا حدث كل هذا؟، لأنكم كنتم مشتتين في أصقاع الأرض، وقلقين .

هكذا كنتم في ذلك العصر البائد الذي دمرتموه بأيديكم . الشتات هو وطنكم ، لا جدوى من هذا الهرب من قدركم ، والبحث عن السعادة والأمن، في هذا البلد النائي . آمل - لأنني أحب اليهود - أن يتمكن العرب، عاجلاً أم آجلاً من طردكم من هنا، وأن يعيدوا تشتيتكم في هذا العالم .

في هذا الوقت، كنا قد وصلنا إلى حديقة للأطفال، حيث كان الفتيان اليهود، الشقر، والسمر، وذوي الشعر الأسود، يلعبون تحت الأشجار، ويغردون كالأطيار، وبحركة عفوية، وجدت نفسي اداعب شعورهم الناعمة، فقد أحسست فجأة، بشعور تراجيدي تشاؤمي يغمر قلبي .